[ذكر حلوان]

حللت : نزلت . وحلوان : بلدة بينها و بين مدينة بغداد أربع مراحل ، وهى من كُور الجَبَل ، وسُمِّيت باسم بانيها ، وهُوَ حلوان بن على بن الحافِ بن قُضاعة ، وهى مدينتان بينهما نهر عظيم مقداره فرسخ ، وهى مقابلة لطَبَرِستان. وهى جبليّة سهلية بحرية لها زيتون ونخيل ، وبها قصب السّكر وافتتحت فى زمن عمر .

* * *

بلوت : جرّبت . الإخوان : الأصحاب . سبرت : فتشت . الأوزان : أقدار الناس . خبرت: جرّبت وعَرفت . شان : عاب ، وزان : زُيِّن؛ يريد أنه دخلها وهو مجرِّب عارف بالناس. ألفيت : وجدت . يتقلّب : يتنوّع . قوالب : جمع قالب ، وقالب كلّ شىء : قياسه وما يُصنع عليه . يخبط : يمشى ، والخَبْط : المشى فى الأرض على غير قصد كمشى الأعمى . أساليب: طرُق ، واحدها أسلوب . آل ساسان : ملوك الفرس . يعتزى : ينتسب . أقيال : ملوك . غسان : قبيلة باليمن كان منها ملوك . وغَسَّان : ماء كان شِرْباً لولد مازن بن الأزد بن الغَوْث فسُمُّوا به . يبرز : يظهر. طوراً: حيناً . شعار : ثياب ، والشِّعَار ثَوب يلى الجسد. كِبْر: تكبّر ، يريد أنه لقى أبا زيد بحُلوان يتنوّع بذلك فى أحوال المكدين ، ويجرى بذلك فى طرق اكتساب المعيشة فيدّعى أنه من آل ساسان .

[شعار الكدية]

وأصل هذا أنّ الفرس كان فيهم المُلْك ، وكانت العرب تحت حكم ملوكهم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم للملكهم بكتابه يدعوهم به إلى الإسلام ، مزّقوه ، فدعا الله عليهم أن يُمزَّقوا كلَّ مُمزَّق ، فأوقع بهم المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد حروب شديدة معظمها بالقادسيَّة ، فلم يبق لهم فى الملك رسم ، وصاروا فى خلافة عثمان رضى الله عنه تحت حكم المسلمين ، وكانوا أهل دَهاء وجراءة وحروب

ورماية ،فسكن من بقي منهم الأمصار ، واستعربوا وتنقّهوا ،فكان منهم مَنْ نفع الله به المسلمين، وكان منهم أهلُ أهواء وبِدَع،ونشأت منهم هذه الطائفة الخسيسة ، أهل الكُدْية ، فكانوا يطوفون على البلدان ، ويقولون : نحن من بنى ساسان، فينتسبون إلى ملوكهم ، ثم يتذلّلون فى السؤال،ويذكرون تلاعُبَ الدّهر وانقلاب حال الملوك إلى السؤال، ليقع الإشفاق عليهم، والميل بالرزق لهم ، حتى شعر الناس بمكرهم وخديعتهم ، فطُرِدُوا ، وصار النّاس إذا رأوا سائلاً متمسكاً قالوا : ساسانى . وقيل : إنَّ ساسان اسم رجل معيّن ، وهو أوّل من أسس الكُدْية ، فَنسِبوا إليه ، كما أنَّ الطّفيليّ منسوب إلى رجل اسمه طُفيل وهو أوّل من تطفّل .

فأراد أن أبا زيد كان يتنوّع فى أحواله ، فيتمسكن تارة ويدّعى أنه من ساسان ، ويتعاظم أخرى فينتسب إلى غسّان ، ويبرُز مرة فى أحلاس الشعراء المكدين ، ويظهر ثانية فى ثياب فاخرة ، لباس الكبراء المثرين .

* * *

بَيْدَ أَنَّهُ مَعَ تَلَوُّنِ حَالِهِ ، وَتَبَيُّنِ مُحَالِهِ ، يَتَحلَّى بِرُوَاءِ وَرِوَايَةٍ ، وَمُدَارَاةٍ وَدِرَايَةٍ ، وَبَلاَغَةٍ رَائِعَةٍ ، وَبديهَةٍ مُطَاوِعَةٍ ، وَآدابٍ بَارِعَةٍ ، وَقدَمٍ لِأَعْلاَمِ الْعُلُومِ فَارِعَةٍ ، فَكانَ لِمَحَاسِنِ آلاَتِهِ ، يُلْبَسُ عَلَى عِلاَّتِهِ ، وَلِسَعَةِ رِوَايَتِهِ ، يُصْبِيَ إِلَى رُؤْيَتِهِ ، وَلِخَلاَبَةِ عَارِضَتِهِ ، يُرْغَبُ عن مُعَارَضَتِهِ ، وَلِعُذُوبَةِ إِيرَادِهِ ، يُسْعَفُ بِمُرَادِهِ، فَتَعَلَّقْتُ بِأَهْدَابِهِ ، لِخَصَائِصِ آدَابِهِ ، وَنَافَسْتُ فى مُصَافَاتِهِ ، لِنَفَائِسِ صِفَاتِهِ .

فَكُنْتُ بِهِ أَجْلُو هُمُومِي وَأَجْتَلِي
زَمَانِيَ طَلْقَ الْوَجْهِ مُلْتَمِعَ الضِّيَا

أَرَى قُرْبَهُ قُرْبَى وَمَعْنَاهُ غُرْبَةً وَرُؤْيَتَهُ رِيًّا ، وَمَحْيَاهُ لى حَيَا

* * *

قوله : « بَيْدَأنه » ، أى غير . مُحَاله : باطله ، والمُحال مالا يمكن أن يُتصوَّر ، وهو « مفعل » من حالَ الشىء ، إذا تغير ، كأنه زال عن وجهه . يتحلّى : يتزين . رواء : نظافة وحسن منظر . مداراة : حسن سياسة فى صُحْبَته ، وأصلها المخادعة . دراية ودِرْية : مصدر دَرَيت . بلاغة : فصاحة . رائعة : معجِبة ، ومَنْ شاهدها ارتاع وتعجَّب . والبديهة والبداهة : الأخذ فى الكلام من غير فكرة ، وهى الارتجال . مطاوِعة : مُنْقادة . بارعة : فائقة تفضُل غيرها . أعلام : جبال . فارعة : طائلة قد علتها ، واللام فى قوله : «لأعلام» زائدة ، وزيادتها إذا تقدَّمت أحسنُ منها إذا تأخرت ، مثل ضربت زيداً ولزيد ضربت . آلاته : عدده ، وأراد به هذه الأنواع التى قدّمها التى تحلّى بها . يابَس : يصاحب ويخالَط . عِلّاته : عيوبه التى ذكر من أنواع الغربة . سَعَة روايته : كثرة علمه وما يرويه . يُصْبَى : يمال . خلابة : خداع ، وقد خلبه خلباً وخلابة : خدعه . عارضته : قوة كلامه . معارضته : مقابلته ومناقضة كلامه ، وتقول : رغبت عن الشىء تركته وتزهدت فيه ، ورغبت فيه ، إذا أحببتَه ، فيريد أنّه لقوّة كلامه وصلابته لا يتعرّض أحد لجداله ، فهو يخادع به الناس حتى لا يعترَض له فيما يقول ، وقيل : معنى فلان شديد العارضة ، إذا أفحَش وَأسمع المكروه ، ورجل شديد العارضة ، أى لا تُقْرَب ناحيته . إيراده : أخذه فى الكلام . يسعف : يساعد . أهدابه : أطراف ثوبه . وخصائص الشىء : ما يختصّ به ، أى ينفرد . نافست : زايدت وغاليت . مصاناته : مصاحبته . نفائس : جمع نفيس ، وهو الرفيع من كلّ شىء يسمَّى نفيساً ، من النَّفْس وهى العين ، حتى كأنه لرفعته تتعلّق به العين ، وقد قال المعرّى :

فالعينُ يسلَمُ منها ما رَأَتْ فنَبَتْ عنه وتلحقُ ما تَهْوَى من الصُّوَرِ (١)

قوله : «أجلو» ، أى أكشف . أجتلى : أنظر . طلق الوجه : مستبشرا ، والطَّلق

(١) ديوانه ١٠٠

ضدّ العابس . ملتمع : منير بادى اللمعان : قربى : نسباً ، ومغناه : منزله ، من قولهم: غِنِيَ بالمكان يَغْنى غنيانا ، إذا أقام به . غُنْية : غِنًى ، يقال : غنى يغنَى غنًى فهو غنىّ ، إذا استغنى ، والاسم : الغُنْية . رِيًّا : شبعاً من الماء ، ورَوِيت من الماء ضدّ عطشت : محياه : حياته . حيا : مطر عامّ . ويقول : إنه كان بمصاحبته أبا زيد يزول همه ، ويلقاه ببشر منه ، فيرى قربه منه بالودّ كقرابة النسب ، وكان منزله لما يجد فيه من الخصب أو من غزارة العلم يرى أنه غناه ، وإذا رآه زال عطشه للعلم أو للماء برؤيته . وقصْد تجنيس الألفاظ يبعد المعنى .

* * *

وَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً ، يُنْشِئُ لِي كلَّ يَوْمٍ نُزْهَةً ، وَيَدْرَأُ عَنْ قَلْبِي شُبْهَةً ، إلى أنْ جَدَحَتْ لَهُ يَدُ الإمْلاقِ كَأْسَ الْفِرَاقِ ، وَأَغْرَاهُ عَدَمُ الْعُرَاقِ بِتَطْلِيقِ الْعِرَاقِ ، وَلَفَظَتْهُ مَعَاوِزُ الإرفاقِ إلى مَفَاوِزِ الآفاقِ ، وَنَظَمَهُ فى سِلْكِ الرِّفَاقِ خُفُوقُ رَايَةِ الإخْفَاقِ ، فشَحَذَ لِلرِّحْلَةِ غِرَارَ عَزْمَتِهِ ، وَظَعَنَ يَقْتَادُ الْقَلْبَ بأَزِمَّتِهِ .

فَمَا رَاقَنِي مَنْ لاَقَنِي بَعْدَ بُعدِهِ
وَلاَ شاقَنِي مَنْ سَاقَنِي لِوِصالِهِ
وَلاَ لاَحَ لِي مُذْ نَدَّ نِدٌّ لِفَضْلِهِ
وَلاَ ذُو خِلاَلٍ حَازَ مِثْلَ خِلاَلِهِ

* * *

لبثنا : أقمنا . برهة : مدّة . ينشىء : يصنع ويبتدئ . والنزهة ، أصلها التَّبَاعد عن الرّيب ، ثمّ كثرت حتى صارت الخروج للرياض للتفرّج ، ثم استعملت فى المعانى ، فقيل : نَزُهَ فلان فى آدابه ، وكنى بهذا عمّا يستفيده من علمه . يدرأ : يدفع . شبهة : إشكال والتباس . جدَحَتْ : حركت ومزجت . والمِجدَح :

آلة يمزج بها المشروب الصعب الامتزاج . الإملاق: الفقر من الملَقة وهى الصخرة الملساء ، فأملق ، كأنه صادف مَلَقة لاتنبت شيئاً ، ولم يصادف خصباً بعد أن كان فى ترفّهٍ وغنًى . أغراه : حرّضه .

والعُراق ، اختلفوا فيه ، فقال صاحب العين : العُراق : العظم بلا لحم ، فإن كان عليه لحم فهو عَرْق .

ابن قتيبة ، يقال للعظم الّذى عليه اللحم عُراق،وللخالى من اللحم عَرْق .

أبو عبيد ، العُراق : القطعةمن اللحم . أبوزيد ، قول العامة : ثريده العُراق خطأ ؛ إذْ كان العُراق العِظام ، وأنشد لرجل يطرد الطير عن زَرْعه فى عام جدب :

عَجِبْتُ من نفسِى ومن إشفاقها ومن طرادى الطَّيْر عن أرزاقِها
فى سَنَةٍ قد كشفت عن ساقها حَمْراء تَبْرِى اللَّحمَ عن عُراقها

ابن الأنبارىّ ، قول أبى عبيد هو الصواب ؛ لأن العرب تقول : أكلت العُراق ولا تقول : أكلت العَظْم ، وفى حديث أم إسحاق العَنَزيّة[1] : فجعلت لا آكل العُراق ولا أضعه ، فقولها : « لا آكل» يدلّ على أن العُراق لحم مفرد أو لحم على عظم .

الأصمعى ، قيل لأعرابىّ : أىّ الطعام أطيب ؟ قال : ثريده دَكْناء من الفلفل ، رَقْطاء من الحمض ، ذات حفافين من البَضع، لها جناحان من العُراق ، قيل: كيف أكلك لها ؟ قال: أصدع بهاتين — يعنى السبابة والوسطى — وأسند بهذين — يعنى الإبهام والخنصر — وأجمع ما شذّ منها بهذه — يعنى البنصر — وأضرب فيها ضرب ولىّ السوء فى مال اليتيم . فهذا يدل على أن العُراق قطع اللحم إذ كانت العرب لاتصف الثريد والأطعمة بكثرة العظام .

والعُراق فى البيت : الأكل ، تقول : عرقت العظم عراقاً ، أكلت ما عليه من اللحم ، والعظم معروق ، وهو بمنزلة سكتّ سكاتاً .

(١) اللسان : « العنوية » .

العِراق : قال صاحب العين : هو شاطىء البحر ، وبه سُمِّيت العِراق ، لأنها على شاطىء دجلة . ابن الأعرابىّ ، سمى عِرَاقاً لأنه سَفُل عن نجد ، ودنا من البحر ، أخِذ من عِراق القربة ، وهو الخرز فى أسفلها . قطرب ، سُمِّى عِراقاً لأنه دنا من البحر ، وبه يُنَاخ وينجد .

ويقال : استعرقت إبلهم ، إذا أتت ذلك الموضع . لَفَظَتْه ، أى رمته . ومعاوز : جمع مَعْوَز ، والمعوز هو العَوز نفسه ، والمِعْوز بالكسر : الثوب الخلَق وجمعه معاوز . الإرفاق ؛ مصدر أرفقته ، إذا أوصلتَ إليه نفعاً يَرْتَفِق به ، ورفقته بمعناه ، فأراد بمعاوز الإرفاق فَقْدَ ما يُرْتَفَقُ به . والمفاوز : جمع مفازة وهى الصحراء ، سمّيت مفازة على التفاؤل ، لأنّ الرجل إذا قطعها فاز ونجا . والآفاق : نواحى الأرض . نظمه : ضمّه وجمعه . سلْك : خيط . الرّفاق : جمع رُفقة ، وعنى بسلْك الرفاق الطريق الذى ينتظمون فيه إذا أخذوا فى السير ، لأنهم يمشون فيه واحداً بعد واحد ، فنظمهم الطريق ، وصار لهم كالسلك . خفوق : اضطراب ، وقد خفق خَفقاً وخُفوقاً ، والإخفاق : الخيبة ، ويقال : غدا فأخفق ، إذا خاب ، ومثله فى الصائد : صاد فأروق . شحذ : حدّ وسنّ ، وشحذ الرجل سيفه ، إذا ألحّ عليه بالتحديد ، ومنه قولهم للملحّ فى المسألة : شحاذ ، والعامة تصحّفه فتقول : شحات ، بالتاء . غِرَار : حدّ . وأراد أنه لما عزم على الارتحال حدّ عزمتَه ، أى عوّل على السفر بجدّ . والعزمة : مصدر عزم إذا جدّ ، وجعل لها حدًّا ، مبالغة فى تعجيل السفر . ظعن : ذهب وارتحل . أزمَّة : جمع زمام ، وهو حبل من جلود يشدّ به فى حلقة مجعولة فى وتد أنف البعير ، فجعل تعلُّق قلوب أصحابه به عند فراقه ، وحَنينَهم إليه ؛ كأنه قد ربطها بأزمَّة وقادها معه ، فمن روى « القلوب » عادت الهاء من « أزمّته » على السروجىّ ، ومن روى « القلب » عادت على القلب أو على السروجىّ ، والقلب لابن همام .

قوله : « راقنى » ، أى أعجبنى ، وقد راق الشىء يَرُوق رَوْقاً فهو رائق ، إذا أعجب . لاقنى : لصق بى وصحبنى .

شاقنى : شوّقنى . ساقنى لوصاله : دعانى لصحبته . لاح : ظهر . ندّ : فرّ وشرد. نِدّ : مثل ، والجمع أنداد . خِلال : جمع خُلّة بالضم ؛ وهى الصداقة ، خِلاله : جمع خُلّة بالضم أيضاً ، وهى الخصلة. وهذا النَّمط فى وصف الصديق وغيبته بارع. ولابن عمران فى ذلك :

يامَرْحباً بصديقٍ لستُ أبصِرُهُ ... إلّا تجدَّد لى أُنسٌ بمرْآهُ
وإن تغيّب عن عينى فلم أرَهُ ... فلى فؤاد بظَهْرِ الغيْبِ يَرعَاهُ

* * *

وَاستَسرَّ عَنِّى حِيناً ، لاَ أَعْرِفُ لَهُ عَرِيناً ، وَلا أَجِدُ عَنْهُ مُبِيناً . فَلَمَّا أُبْتُ مِنْ غُرْبَتى ، إلى مَنْبِتِ شُعْبَتى ، حَضَرْتُ دَارَ كُتُبِهَا الَّتى هِىَ مُنْتَدَى الْمُتَأَدِّبِينَ ، وَمُلْتَقَى الْقَاطِنِينَ مِنْهُمْ وَالْمُتَغَرِّبِينَ ، فَدَخَلَ ذُو لِحْيَةٍ كَثَّةٍ ، وَهَيْئَةٍ رَثَّةٍ ، فَسَلَّمَ على الْجُلاَّسِ ، وَجَلَسَ فى أُخْرَيَاتِ النَّاسِ .

* * *

استسرّ : غاب واختفى ، وأصله من سِرار الهلال فى آخر الشهر، وهو يستسرّ ليلة لا يظهر أو ليلتين . والعرين: بيت الأسد ومأواه . مبيناً : معلماً به يبيّن لى أين استقرّ . أُبْت : رجعت . منبت شُعبتى ، أى بلدة قرابتى التى نبتُوا فيها، يريد البصرة. والشُّعبة: القرابة . دار كتبها :مدرسة العلم . منتدى : مجتمع . القاطنين : الساكنين ، وقَطَن بالمكان : أقام فيه . كثّة : كثيرة الأصول من غير طول .

[مما قيل فى اللحى]

ويقال للّحية إذاقصر شعرها وكثر: إنها لكَثَّة،وقد كثَّتْ تكِثّ كَثَاثَةً وكُثوثة ، ورجل كث اللحية ، ولحية كُثحُمة ، إذا كثُفت وقصرت وجَعُدت ،

ورجل كُثحُم اللحية . وإذا عظمت وكثر شعرها قيل : إنه لذو عُثْنون ، وإنه لَهِلّوف ، فإذا كانت اللحية قليلة فى الذقن ولم تكن فى العارضين فذلك السَّنُوط والسُّنَاط ، ورجل سُناط : بيّن السَّنَط ، فإذا لم يكن فى وجهه كثير شعر ، فذلك النَّطط ورجل نَطّ ، ورجال نِطاط . والسَّبَلة : مقدّم اللحية ، ورجل مسبِل ، وفلان خفيف العِذارين ، وهما ما اتصل من شعر اللحية بالصُّدغ ، وهما العارضان ، وهما ما نبت فى الخدّين من الشَّعر على عوارض الأسنان ، قال رؤبة فى لحية حرب بن قَطَن :

هِلَّوفةٌ كأنها جُوَالِقُ نَكْداء لا بارك فيها الخالِقُ
لها فضولٌ ولها بنائِقُ إذا الرياح العصفُ السَّوابِقُ
طيَّرْنَها طارتْ لها عقائِقُ إن الذى يحمِلُها لمائِقُ

وأنشد أبو علىّ :

وأنت امرؤ قد كَثَّأتْ لك لحيةٌ كأنك منها قاعد فى جُوَالِقِ

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «من سعادة المرء خفة لحيته» . وكانت عائشة رضى الله عنها تقسم فتقول : « لا والذى زيّن الرجال باللحى » ، تقول : إنه قَسَم الملائكة .

قال الأحدب الصوفىّ : سمعت مطيار بن أحمد يقول : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت : يا رسول الله ، أشتهى لحية كبيرة ، فقال لى : « لحيتك جيدة ، وأنت محتاج إلى عقل تامّ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اعتبر واعقل الرَّجل فى ثلاث : فى طول لحيته ، ونقش خاتمه ، وكنيته » .

أتى رجلٌ طويلُ اللحية معاوية فقال له : أمَّا اللحية فلا نسأل عنها ، فما نقش خاتمك ؟ فقال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاأَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾[1] ، قال : فما كنيتك ؟ فقال : أبو الكوكب الدرّىّ ، قال : كَمَل الرجل .

(١) سورة النمل ٢٠ .

وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء .

وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته ، ويأخذ ما زاد منها على قبضته .

الحسن بن المثنى: إذا رأيت رجلًا له لحية طويلة ، ولم يتخذ لحية بين لحيتين، كان فى عقله شىء .

وكان المأمون جالساً مع ندمائه ببغداد ، مشرفاً على دجلة وهم يتذاكرون أخبارَ الناس ، فقال المأمون : ماطالت لحية إنسان قط إلا ونقص من عقله بمقدار ماطال من لحيته ، وما رأيت عاقلا قطُّ طويلَ اللحية . فقال له بعض جلسائه، ولا يردّ على أمير المؤمنين: قد يكون فى طول اللحى أيضاً عقل؛ فبينما هم يتذاكرون فى هذا ، إذ أقبل رجل كبير اللحية ، حسن الهيئة ، فاخر الثياب ، فقال المأمون : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : رجل عاقل ، وقال آخر : يجب أن يكون هذا قاضياً ، فقال المأمون لبعض الخدم : علىَّ بالرجل ، فلم يلبث أن أصْعِد إليه ووقف بين يديه، فسلَّم فأجاد السّلام، فأجلسه المأمون، واستنطقه فأحسن النطق، فقال المأمون : ما اسمُك ؟ فقال : علّوية ، قال : فما الكنية ؟ قال: أبو حمدويه، فضحك المأمون ، وغمز جلساءه ثم قال : ما صنعتُك ؟ قال : فقيهٌ أجيد الشرع فى المسائل ، فقال له : نسألك مسألة ! فقال الرجل : سل عما بدا لك ، فقال له المأمون : ما تقول فى رجل اشترى شاة من رجل ، فلما تسلّمها المشترى ، وقضى الثمن ،ضرَطت ، فخرج من استها بعرة ففقأت عين رجل ؛ على مَنْ تجب دية العين ؟ قال : فنكت بإصبعه فى الأرض طويلًا، ثمّ قال: تجب على البائع دون المشترى ، فقال المأمون : وما العلّة التى أوجبت الدية عليه دون المشترى ؟ قال: إنه لمّا باعها لم يشترط أنّ فى استها مِنجنيقاً، قال : فضحك المأمون حتى استلقَى على قفاه ،وضحك كلّ من حضره مِنَ الندماء . وأنشد المأمون يقول:

ما أحدٌ طالت له لِحْيةٌ فزادت اللِّحيةُ فى حِلْيَتِه

إلا وما ينقص مِنْ عقله أكثر مما زاد فى لحيتِهْ

وقال آخر :

إذا عظمتْ للفتى لِحْيـةٌ فطالت فَصَارَتْ إلى سرَّتِهْ
فنقصان عقل الفتى عندنا بمقدار ما زاد فى لِحْيَتِهْ

وأنشد أبو علىّ :

لا تفخـرنَّ بلحيـةٍ كَثُرَتْ منابتُهَا طويلهْ[1]
يَهوِى تفـرُّقَهَا الرّيا ح كأنهـا ذَنَبُ الحسِيلهْ
قَدْ يدرِكُ الشَّرَفَ الفتى يوماً ، ولحيته قليـلهْ

وقال : الحسيلة العجلة .

وأنشد أبو العباس رحمه الله :

كل امرئٍ ذى لحية عَثْوَلِيَّةٍ يقوم عليها ظَنَّ أنّه له فضلاَ
وماالفضلُ فى طول السِّبال وعرْضِهِ إذا الله لم يجعل لصاحبه عقْلاَ

عَثْولية : كبيرة .

نظر يزيد بن مزيد الشيبانىّ رحمه الله إلى رجل ذى لحية عظيمة ، وقـد تَلَفَّفَتْ على صدره ، وإذا هو خاضب ، فقال له : إنك من لحيتك فى مئونة ، فقال : أجل ، ولذلك أقول :

لَعَمْرُكَ لو يعطِى الأميرُ على اللّحَى لأصبحتُ قد أيسرتُ منذ زمَانِ[2]
إذاً لشفتنِى لحيتى من عصـابةٍ لهم عنده ألفٌ ولى مائتـانِ
لها درهم للدُّهْنِ فى كلِّ جمعـةٍ وآخـر للحِنَّاء يبتـدرَانِ
ولولا نوالٌ من يزيد بن مَزْيَدٍ لصوّت فى حافاتها الجَلَمَانِ

(١) الأبيات فى اللسان (حسل) من غير نسبة .
(٢) الكامل للمبرد ٢ : ١٢٨

فأمر له بعشرة آلاف درهم . والجلمان : المقصّ ، ويسمى الجالِم .

وقال إسحاق بن خلف يصف رجُلاً بالقِصَرِ وطول اللّحية :

ما سرّنى أنّنِى فى طولِ دَاوُدِ ... وأننّى عَلّم فى البَأْسِ والجود[1]
ماشيتُ داودفاستَضحكتُ من عجَبٍ ... كأننى والدٌ يمشى بمولُودِ
ما طولُ داودَ إلّا طولُ لحيتِه ... يظلُّ داودُ فيها غيرَ موجُودِ
تكنُّه خصْلة منها إذا نفحت ... ريح الشمالِ ، وجفَّ الماء فى العودِ
أجدى وأغنى من الخزّ الصّفيق ومن ... بيض القطائف يوم القرّ والسُّودِ

وأشد إفراطاً منه قول ابن الرومىّ :

ولَحيةٍ يحمِلُهـا مائقٌ ... مثل الشِّراعين إذا أُشرِعَا
تقودُه الرِّيح بها طائعاً ... قَوْداً عنيفا يُتْعِب الأَخْدَعَا
وإن عدا والريح فى وَجْهِهِ ... لم ينبعثْ فى مشيه إصبعَا
لو غاص فى اليمِّ بها غَوْصَةً ... صاد بها حِيتانَهُ أجمَعَا

وأشد إفراطا منه قول الآخر :

يا لحْيَةَ الشَّيْخ الأزَبّ تميم ... أهديت للأقوام عرف الثُّوم
لو أنها دون السماء غمامَةً ... ضاقتْ مسالكُ دعوة المظلُومِ
أو صبَّها فى الماء ثم سَمَا بِها ... قامتْ مقام العارِضِ المرْكُومِ

ولابن سارة :

ولحيةٍ لست أدرى كيف أنعتها ... فضول أشعارها أوْدَتْ بأشعارِى
كأنها ويمينُ الرِّيح تنشرُها ... مِذَبَّةٌ وقعت فى عود بَيْطارِ

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١٢٨

وقال آخر :

أبصرتُ شيخا ذاهباً جائيـــاً ذا لحيـــةٍ قدْ كبرُت فى اتِّسَاعْ
عرْضاً وطُولاً وهو من خَلْفِهَا كأنه ناشرُ ثوبٍ يُبـــاعْ

وقال آخر :

لقد كانتْ مجالسُنـــا فِساحًا فضيَّقَهـــا بلحيتِـــهِ رَبَاحُ
مُقَلَّبَة الأسافـــل والأعالِى لها فى كلّ زاوية جَنَـــاحُ

وقال آخر :

يأيّها الناس خذوا حِذْرَكُمْ قدبرَزَتْ لِحْيَـــةُ بَهْلُولِ
فطـــولُها الفرسخُ فى فرسخٍ وعرضها ميـــلٌ إلى مِيلِ
لو ضمَّ ما يقطر من دُهنهـــا أسرِج منه ألفُ قِنْدِيـــلِ
ولو سَهَا الحجَّـــام عن قَصِّها لحـــالطت ما فى السَّرَاوِيلِ

ذكر هنا أبو محمد لحية السرّوجىّ أنّها كثّة، وكل صفة يصف بها السَّروجىّ فى المقامات ، فتلك كانت صفة الحريرى . وذكر ابن جَهْور أنَّ الحريرىّ كان قليل اللّحية لا خلقةً ، وإنما كان مولعاً بنتفها ، كانت يده رحمه الله لا تفارق لحيتَه . وهذا على كثرته قليل فيما قيل فى اللحية .

قوله «رَثَّة» ، أى خَلَقَة بالية . أخريات : أطراف ، وهى جمع أخرى .

* * *

ثمَّ أَخَذَ يُبْدِى مَا فِى وِطَابِهِ ، وَيُعْجِبُ الْحَاضِرِينَ بِفَصْلِ خِطَابِهِ ، فقالَ لِمَنْ يَلِيهِ : مَا الكِتابُ الَّذِى تَنْظُرُ فيه ؟ فقال : ديوانُ أَبِى عِبَادَة ، الْمَشْهُودِ لَهُ بالإِجَادَةِ .

* * *

أتى طلحة رضى الله عنه مجلس قوم، فجعلوا ينادونه من كلّ جانب: هاهنا

يا صاحبَ رسول الله ! قال: فجلس فى أدْنَى المجلس ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ من التواضع لله الرضا بالدُّون من شرف المجلس » .

وطابه : زِقَاق لَبِنِه ، أراد أنه يظهر ما عنده . يعجب : يجعلهم يتعجَّبون . بفصل خطابه : يريد بفصل كلامه وجودة بلاغته ، وقوله تعالى : ﴿ و فَصْلَ الخِطَابِ ﴾[1] هو قول الخطيب : « أما بعد » . يليه : يلصق به .

[البحترىّ وبعض أخباره وشعره]

أبى عبادة . قال البكرىّ : هو الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد ، من بنى بحتر بن عتود بن عُنين ابن سَلَامان بن ثُعَل بن عمرو بن الغَوْث بن جلهمة ، وهى طيِّىء . شاعر مقدّم لا يُعدَل به أحد ، يفضَّل على حبيب ، والناس فى تفضيلهما على اختلاف .

قال أبو الفرج الأصبهانىُّ : كان البحترىّ شاعراً فصيحاً ، حسن المذهب نَقِىّ الكلام ، خُتِم به الشعراء المحدَثون ، وله تصرّف فى ضروب الشعر ، سوى الهجاء ، فإنّ بضاعته فيه نَزْرة .

قال البحترىّ : وكان أول أمرى أنِّى سرت إلى أبى عامر بحِمْص ، فعرضت عليه شعرى ـ والشعراء يعرضون عليه أشعَارهم ـ فترك مَنْ حضر وأقبل علىّ ، فقال لى حين تفرّقوا : أنت أشعَر مَنْ أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكوت خَلَّة ، فكتب إلى أهل معرّة النعمان ، وشهد لى بالحذْقِ فى الشعر ، وشفع لى إليهم ، وقال : امتدحهم. فسرت إليهم ، فأكرمونى بكتابه ، ووظَّفُوا لى أربعة آلاف درهم ، فكانت أوّل مالٍ أصبته[2] .

وحدّث أبو الفرج ، قال : حدثنى أبو الغَوْث البحترىّ ، عن أبيه ، قال : أوّل

(١) سورة ص ٢٠ .
(٢) الأغانى ١٨ : ١٦٧ ، ١٦٩ .

أمرِى أنّى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرىّ ، فأنشدته قصيدة أولها :

* أأفاق صبٌّ مِنْ هَوًى فأُفِيقَا *

فسُرَّ أبو يوسف بها ، وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت ـ وفى مجلسه رجل رفيع نبيل قريب المجلس منه ، فوق كل مَنْ حضر ، تكاد تمسّ ركبتُه ركبتَه ، فأقبل علىّ ، ثم قال : أما تستَحِى منى ! هذا شعرى تنتحله وتنشده بحضرتى ! فقال له أبو سعيد : أحقًّا ما تقول ؟ قال : نعم ، وإنما عَلِقه منّى وسبق به إليك ، وزاد فيه. ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة ، حتى شكّكنى ـ علم الله ـ فى نفسى ، وبقيت متحيّراً ، فقال لى أبو سعيد : يافتى ، قد كان لك فى قرابتك منّى ما يغنيك عن هذا ! فجعلت أحلف بكل مخرّجةٍ من الأيمان أن الشعر لى ، ماسمعتُه منه ، ولا انتحلتُه. فلم ينفع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد ، وقطع بى حتى تمنّيت أن يُساخ بى فى الأرض ، فقمت منكسف[1] البالِ ، أجرّ رجلىّ ، فما بلغت باب الدار حتى ردَّنى الغلام ، فأقبل علىَّ الرجل وقال : الشعر لك يابنىّ ، والله ماقلتُه قطّ ، ولا سمعتُه إلا منك ؛ ولكننى كنت ظننتُ أنّك تهاونتَ بموضعى ، فأقدمت على الإنشاد بحضرتى ، تريد مضاهاتى ، حتى عرّفنى الأمير نسبك ، ولوددت ألّا تلد طائيّة إلا مثلك ، ودعانى وضمّنى إليه ، وعانقنى ، وأبو سعيد يضحك ، فلزمتهُ بعد ذلك وأخذت عنه ، واحتذيت فنه[2] .

وعن أبى الغوث عن أبيه قال : ، قال لى أبو تمام : بلغنى أن بنى حُميد أعطَوْكَ مالاً جليلاً ، فبِمَ مدحتهم ؟ فأنشدْنى شيئاً منه ، فأنشدته ، فقال لى : كم أعطوك ؟ فقلت : كذا ، فقال لى : ظلموكَ ، والله ماوفَّوْك حقَّك ، فلمَ استكثرتَ ماأعطوْك ! والله لبَيْتٌ منها خَيْرٌ مما أخذت . ثم أطرق قليلاً وقال : لعمْرِى لقد استكثرتَ ذلك لمّا مات الكرام ، وذهب الناس ، وغاضت المكارم ، وكسدت

(١) الأغانى : « منكسر » .
(٢) الأغانى ١٨ : ١٦٩

أسواق الأدب ، أنت الله يابنيّ أمير الشعراء غداً بعدى، فقمت فقبّلت رأسه ويديه ورجليه ، وقلت : والله لهذا القول أسرُّ لِي مما وصل إليّ منهم .

قال البحترىّ : أنشدت أبا تمام يوماً شيئاً من شـــعرى ، فأنشدنى بيت أَوْسٍ :

وإنْ مُقْرَمٌ منّا ذَرَا حدَّ نابِهِ تمخَّط فينا نابُ آخرَ مُقْرَمِ[1]

ثم قال : يابنيّ ، نَعَيْتَ إلىَّ نفسى : فقلت : أعيذك بالله من هذا ! فقال لى : إن عمرى ليس يطول ، وقد نشأ مثلُك لطيٌّ ، أما علمت أن خالد بن صفوان المِنْقرِىّ رأى شبيب بن شبّة ، وهو من رهطه يتكلم، فقال . يابنيّ ، نَعَى نفسى إلىّ إحسانُك فى كلامك ؛ لأنّا أهل بيت، ما نشأ فينا قطّ خطيب إلا مات مَنْ قبله.

قال : فمات أبو تمام بعد سنة من قوله هذا ، ومات البحترى سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

المبرّد : ذكرت للمتوكل المنازعة الّتِي جَرَتْ بينى وبين أبى الفتح فى تأويلات ،[2] فبعث إلى عامله بالبصرة أن يحملنى إليه مكرهاً ،فوردتُ سرّ من رأى ، فأُدخِلْتُ على المتوكِّل ، وفى المجلس البحترىّ وأبو العنبس الصيمرىّ ، فأنشده البحترىّ قصيدة أولها :

عنْ أىّ ثغرٍ تبتسمْ وبأىّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ[3]
حَسَنٌ يَضَنّ بحُسْنِهِ والحُسْنُ أشبَهُ بالكرَمْ

حتى بلغ :

قلْ للخليفةِ جعفرِ المُتَـــوَكِّلِ بنِ المعتصمْ

(١) وذرا حد نابه : انكسر ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت .
(٢) ج : « تأويلاته » وهى ساقطة من المسعودى وإنباه الرواة .
(٣) ديوانه ١٩٩٨ .

المرتضَى ابنِ المجتَبى والمنعم ابن المنتقمْ
أمّا الرعيَّة فهى مِنْ أمَنَاتِ عَدْلك فى حَرَمْ
يابانىَ المجـدِ الذى قد كان قُوِّضَ فانْهدَمْ
اسْـلَمْ لدين محمَّدٍ فإذا سلمتَ فقد سَلِمْ
نِلْنَا الهدى بعد العمَى بلْ والغنى بعد العَدَمْ(١)

ثم مشى القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنبس ، وقال : يا سيّدى ، تأمر بردّه ! فقد والله عارضتُه ، فأخذ ينشد فى ذلك :

فى أىّ سَلْحٍ تنْتظِمْ وبأىِّ كفٍّ تلتقِمْ
أدخلت رأس البحـترىّ أبى عُبادة فى الرَّحِمْ

ووصله بما يشبهه من الشعر . فضحك المتوكّل حتى استلقَى ، وقال : يُدفع إلى أبى العنبس عشرة آلاف درهم ، فقال أبو الفتح : ياأميرالمؤمنين ، والبحترىّ الذى هُجِىَ وأُسْمِع المكروه ينصرف خائباً ؟ قال : ويُدْفَع إلى البحترىّ عشرة آلاف درهم ، قال: يا سيّدى ، وهذا البصرىّ الذى أشخصْنَاه من بلده ، ألا يشركهم فيما حصلوه ؟ قال: ويُدْفع له عشرة آلاف : قال : وانصرفنا كلّنا فى شفاعة الهذلىّ ، ولم ينفع البحترىَّ جِدُّه وحِذقه .(٢)

وأما أبو الفرج ، فقال : حدّثنى جحظة عن أبى العنبس الصيمرىّ ، قال : كنت عند المتوكل والبحترىّ ينشده :

* عن أىِّ ثغرٍ تَبْتَسِمْ *

وكان البحترىّ من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور فى مشيه مرَّة جانباً ، ومرّة القهقرى ، ويهزّ رأسه مرة ومنكبيه أخرى ، ويشير بكفيه ، ويقف عند كل بيت ، ويقول: أحسنتُ والله ! ثم يقبل على المستمعين ، ويقول لهم : مالكم لاتقولون : أحسنت ! هذا والله ما لايحسِن أحدٌ أن يقول مثله ، فضجر

(١) الديوان : « بك والغنى » .
(٢) الخبر برواية المبرد فى مروج الذهب ٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ وإنباه الرواة ٣ : ٤٤٤ .

المتوكل من ذلك ، وأقبل علىّ فقال : أما تسمع يا صيمرىّ ما يقول ؟ فقلت : بلى ياسيدى ، فمرْ فيه بما أحببتَ ، فقال : بحياتى اهْجُه على هذا الروىّ ، فقلت على البديهة :

أدخلتَ رأسك فى الرَّحِمْ ... وعلمتَ أنكَ تنهزِمْ[1]
يا بحترىّ حذارِ ويْحـ ... ـكمن قضاقِضَةٍ ضُغُمْ
فلقد أسَلْت بواديْـ ... ـك من الهِجَاسَيْلَ العَرِمْ
فبأىّ عِـرْض تعتصِمْ ... وبهتكه جفّ القَلَمْ
واللهِ حِلْفَةَ صادقٍ ... وبقبر أحْمَدَ والحرَمْ
ووحق جعفرٍ الإما ... م بن الإمام المعتصِمْ
لأصيِّرنّك شُهْرَةً ... بين المسيل إلى العَلَمْ
يا بنَ الثّقيلةْ والثّقيـ ... ـل على قلوب ذوِى النِّعَمْ
وعلى الصَّغير مع الكبـ ... ـيرِ مِنَ الموالى والحَشَمْ

وبعد هذا ما يقبح ذكره ؛ فغضب البحترىّ ، وخرج يعدو ، وجعلت أصيح به :

أدخلْتَ رأسك فى الرَّحِمْ ... وعلمت أنك تنهَزِمْ

والمتوكّل يضحك ، ويصّفق حتى غاب عنه .[1]

ومدح البحترىّ بعض الولاة ، فتوانى فى حقه، فأنشده :

إنّ الأميرَ أطال الله مدّتَهُ ... يُعْطَى من العُرْفِ ما لم يُعْطَهِ أحَدُ[2]
ينسى الّذى كان مِنَ معروفه أبدا ... إلى العباد ، ولا ينسى الذى يَعِدُ

فأعطاه خمسين ألف درهم، وقال : البيتان خير من القصيدة .

وقال الهذلىّ : قيل للبحترىّ: أيما أشعر؟ أنت أو أبو تمام ؟ قال: جيّدُه خيرٌ من جيِّدى ، ورديئى خير من رديئه . وصدق ، أبو تمّام لا يتعلّق به أحـ ... فى .

(١) الأغانى ١٨ : ١٨٣، وأخبار البحترى للصولى ٨٧.
(٢) ملحق ديوانه ٢٥٤٥ .

فى جيّده ، وربما اختلّ لفظه لامعناه، والبحترىّ لا يختلُّ لفظه .

وقيل له : قد عثرتَ باحتذائك أبا تمامٍ فى شعرك! فقال:أيُعاب علىّ أن أتبع أبا تمام ، وما عملت بيتاً قط حتى أُخْطِر شعره ببالى !

وذكروا معنًى تعاوره البحترىّ وأبو تمام، فقال المبرّدللبحترىّ: أنت فى هذا أشعر من أبى تمّام ، فقال : لا والله ، ذلك الرئيس الأستاذ ، والله ما أكلت الخبزَ إلا به .

وقال عبد الله بن الحسن: سألت المبرّدعن أبى تمام والبحترىّ أيهما أشعر ؟ فقال : لأبى تمّام استخراجات لطيفة ، ومعانٍ ظريفة ، وجيِّده أجـود من شعر البحترىّ ومَنْ تقدّمه من المحدثين، وشعر البحترىّ أحسن استواء من شعره، لأنّ البحترىّ يقول القصيدة كلّها، فتكون سليمة من طعن طاعن ، وأبو تمام يقول البيت النّادر والبارد ؛ وهذا المعنى كان أعجب إلى الأصمعىّ ، وما أشبّهه إلا بغائص يُخرج الدرّة المَخْشَلبة ـ وهى زجاجة توضع مكان الدّرّة ـ ثم قال : لأبى تمام والبحترىّ من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله ، ثم قال : والبحترىّ ختم الشعر،وله بيتان لو وضعا إلى شعر زُهير لجازا فيه؛وهما :

فماسَفَهُ السَّفيـه وإن تعـدّى بأنجـعَ فيك من حِلْم الحليم[1]

متى أحفظتَ ذَا كـرمٍ تخطّى إليك ببعض أفعـال اللّئيم

وذكر المبرّد فى هذا المجلس شعراً له ، وقدّمه على نظرائه :

وإذا ذكرتُ محاسنَ ابنىْ صاعدٍ أدّت إليك مخائلَ ابنى مُخْلَدِ[2]

كالفَرْقدَيْن إذا تأمّل ناظـرٌ لم يعلُ موضعُ فرقدٍ عن فرقدِ

وقوله :

مَنْ شاكرٌ عنّى الخليفةَ للّذى أولاه من فضلٍ ومن إحسانِ[3]

(١) ديوانه ٢٠٧٩ (٢) ديوانه ٥٤١

(٣) ديوانه ٢٢٥٥ .

حتَّى لقد أفضلتُ من إفضاله ورأيت نَهْجَ الجود حيثُ رآنِي

وبعدهما :

أغنت يداهُ يدى وشرّد جُودُه بُخْلِي ، فأفقرنى كما أغنانِي

وله أيضاً فى الفتح بن خاقان ، وقد نزل إلى الأسد فقتله:

حملت عليه السيف عطفك ما انثنى ، ولا يدُك ارتدَّت ولا حدُّه نَبَا[1]

فأحجم لمّا لم يجد فيك مطمَعًا وصمّم لما لم يجدْ عنك مَهْرَبَا

وله فيه :

وما منع الفتحُ بن خاقان نيْلَه ولكنها الأيام تُعطِى وتَحرِمُ[2]

سحابٌ خطانى جَوْدُه وهو مسبِلٌ وبحرٌ عَدَانِى فيضُه وهو مفعَمُ

وبدرٌ أضاءَ الأرضَ شرقاً ومغرباً وموضعُ رجلى منه أسودُ مُظلِمُ

أأشكو نَدَاه بعد أن وَسِعَ الورَى ومَنْ ذا يذمّ الغيث إلا مذمَّمُ !

وله أيضاً فى انتقاض صلح بين عشيرته :

إذا ما الجرحُ رمّ على فَسادٍ تبيَّنَ فيه تفريط الطَّبيبِ[3]

وللسَّهْم السَّديد أشد حُبًّا إلى الرامى من السهم المُصيبِ

ومن جيّد شعره :

ولما التقينا واللّوَى موعدٌ لنا تبيَّن رائى الدرّ حسناً ولاقطُهْ[4]

فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامِهَا ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقِطُهْ

والبحترىّ مكثر جدًّا ، وديوان شعره نسخ مختلفاً بالزيادة والنقص ؛ لأنّ شعره لا ينضبط لكثرته .

(١) ديوانه ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢) ديوانه ١٩٨٠
(٣) ديوانه ١٩٠ .
(٤) ديوانه ١٢٣٠ .

[وصيّة أبى تمام للبحترىّ]

قال البحترىّ : كنت أروم الشعر فى حداثتى ، وكنت أرجع فيه إلى الطبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه ، حتى قصدت أبا تمّام ، وانقطعت فيه إليه ، واتّكلت فى تعريفه عليه ، فكان أوّل ماقال لى: يا أبا عُبادة، تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليل الهموم ، صِفْرٌ من الغموم . واعلم أنّ العادة جرت فى الأوقات أن يقصدها الإنسان لتأليف الشىء ، أو حفظه فى وقت السَّحَر ، وذلك أن النفس تكون قد أخذت بحظها فى الراحة ، وقسطها من النوم ، فإن أردت التشبيب، فاجعل اللفظَ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه بيان الصَّبابة ، وتوجُّع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق؛ فإذا أخذتَ فى مدح سيّد [ذى أيادٍ][1] ، فأشهِرْ مناقبَه ، وأظهِرْ مناسبَه ، وأبن معالمه ، وشرّف مقامه ، ونضّد المعانى ، واحذر المحتملَ[2] منها . وإيّاك أن تشين شعرَك بالألفاظ الهجينة[3] ، وكن كأنك خيّاط تقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضَّجَر فأرح نفسَك، ولا تعمل شعراً إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتَك إلى قول الشعر الذَّريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة تجمع النفس[4] . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سبق من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ؛ ترشد إن شاء الله تعالى .

قال : فأعملت نفسى فيما قال ، فوقفت على السياسة[5] .

* * *

فَقَالَ : هَلْ عَثَرْتَ لَهُ فِيمَا لَمَحْتَهُ ، عَلَى بَدِيعِ اسْتَمْلَحْتَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَوْلُهُ :

---

(١) من زهر الآداب (٢) زهر الآداب : « المجهول » .
(٣) زهر الآداب : « الرديئة » . (٤) زهر الآداب : « نعم المعين » .
(٥) زهر الآداب ١١٠ ، ١١١ ، العمدة ٢ : ١١٤ .

كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنَضَّدٍ أَوْ بَرَدٍ أَوْ أَقَاحْ

فإنَّهُ أَبْدَعَ فِي التشْبِيهِ ، الْمُودَعِ فِيهِ .

* * *

قوله : «هل عثرت» ،معناه اطّلعت . لمحته : نظرته . بديع : معنى لم يسبق غيره إليه من تشبيه أو تجنيس وشبههما ممّا ذكر من صنع البديع فى [المقامة] الثالثة والعشرين. والبِدْع: إحداث الشيء قبل أن يكون أولا، والبدْعَة :ما ابتدع من الدِّين ،والبديع :المحدث العجيب ، وأبدع الرجل :أتى ببديع من قول أو فعل، وأبدع الله الأشياء وابتدعها : خلقها بلا مثال . استملحته : وجدته مليحا . يبسم : يبدى بعضَ أسنانه عند الضحك . لؤلؤ : جوهر شبّه به الأسنان . وهذا البيت من شعره ، وقبله :

باتَ نديماً لىَ حَتَّى الصَّبَاحْ أغْيَدُ مجدولُ مكانِ الوِشَاحْ[1]

فبتّ أفـــديه ولا أرعوِى لنهيِ ناهٍ عنه أو لَحْيِ لاَحْ

أمزُجُ كأسِي بجَنَى رِيقِهِ وإنما أمزُجُ راحاً بِرَاحْ

كأنما يبسم . . . . البيت .

وبعده :

سِحْرُ العُيونِ النُّجْلِ مُسْتَهْلِكٌ لُبِّي ، وتوريد الخدُودِ المِلاَحْ

قل لأبى نوحٍ شقيق العـلاَ ومَعدِنِ الجودِ ، وترْبِ السَّمَاحْ[2]

أعوذ بالفضْل الجميـل الَّذى عوّدتنى ، والنائِلِ المُسْتَمَاحْ

منْ أن تَصُدّ الطّرف عنّى وأنْ أخيبَ فى جدواك بعد النَّجَاحْ

أشْمَتَّ حُسَّـادِى وأخرجتنِي عن سَيْبِك المُغْدَى علىّ المرَاحْ

فهل لأُنْسٍ بان من عودةٍ أمْ هل لحالٍ فَسَدَتْ مِنْ صَلاَحْ

(١) ديوانه ٤٣٥ .

(٢) هو أبو نوح عيسى بن موسى الممدوح .

لستُ على سخطك جَلْدَ القوى وَلاَ عَلَى هجرِك شاكِى السِّلاَحْ

قوله : « المودَع » : المضمّن ، وأودع الشيء : صيّره وديعةً .

* * *

فَقَالَ لَهُ : يَا لَلْعَجَب ، ولِضَيْعَةِ الْأَدَبِ !لَقَدِ اسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ، وَنَفَخْتَ فى غَيْرِ ضَرَمٍ ! أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبَيْتِ النَّدْرِ ، الْجَامِعِ مُشَبَّهَاتِ الثَّغْرِ ! وَأَنْشَدَ :

نَفْسِى الْفِدَاءُ لِثَغْرٍ رَقَّ مَبْسَمُهُ
وَزَانَهُ شَنَبٌ نَاهِيكَ مِنْ شَنَبِ
يَفْتَرُّ عَنْ لُؤْلُؤٍ رَطْبٍ وَعَنْ بَرَدٍ
وَعَنْ أَقَاحٍ وَعَنْ طَلْعٍ وَعَنْ حَبَبِ

* * *

استسمنت : حسبتَه سميناً وطلبت السمانة من هزيل . وَرَم : دُمّل ، والمعنى أنه يرميه بسوء الفهم ، وقد بيّن هذا أبو الطيّب المتنبى فقال :

أعيدُها نظراتٍ منكَ صادقةً أنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ[1]
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِى الدُّنيَا بناظِرِهِ إذا استوتْ عندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ

ونفخت فى غير ضرم ، مثل لطلب الشيء فى غير موضعه ، ولفظ المثل[2] : « نفخت » أو « تنفخ » ، والضَّرم : النار . النَّدْر ، والنادر : الغريب . الثغر : الأسنان ، مبسمه : موضع ابتسامه ، يعنى الفم .

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) لفظ المثل فى جمهرة الأمثال ٢ : ٣ : « نفخت لوتنفخ فى فحم » ، والفحم : الجمر الطافىء .

الشَّنَب : الماء القليل الجارى على الأسنان . الجرمىّ: سمعت الأصمعى يقول : الشَّنب بَرْد الأسنان والفم ، فقلت : أصحابنا يقولون : حدّتها حين تطلُع ، فيراد بذلك حَدَائتها وطراءتها ، لأنّها إذا أتت عليها السنون تغيّرت ، فقال : ما هو إلا بَرْدها . ابن سيده : قال الأصمعىّ : سألت رؤبة عن الشّنب ماهو ؟ فأخذ حبّة رمان فأومأ إلى بصيصها .

ناهيك : كافيك ، وتقول: ناهيك بفلان ! أى قد انتهى الأمر فيه إلى الغاية ونَهِيَ الرّجل من اللحم وأنْهى ، إذا شبع منه واكتفى ، والنِّهْى : الغدير لأنه ينتهى إليه ماء الوادى . يفترّ : يكشف ويبسم . رطب ، أى طرىّ كما أخرج من أصدافه ، وفى اللؤلؤ إذ ذاك رطوبة وسطوع بياض، فإذا أصابه الهوى ودام عليه صَلُب ، وإذا تداولته الأيدى باللمس وقدم تغيرّ بياضه . الطّلع : أول حَمْل النخلة ، وهو الفرخ فإذا انشق فهو الضحْك ، وبه تشبّه الأسنان فى بياضه ، ثم الإغريض إذا افترق حبّه، وإنمّا شبّه الأسنان بالطَّلْع ، وهو الفرخ ، لأنه إذا شقّ وجد ما فيه من حمل النخلة فى غاية البياض ، ويقال له : الوليع ، قال الشاعر :

وتبسّم عن لؤلؤٍ كالوليـــعِ تشقّق عنه الرّقاة الجفوفا[1]

الجُفوف جمع جُفّ وهو قشر الفرخ ، ويقال له القيقاء والبابلة ، وهو طيّب الريح ، والرّقاة: الراقون إلى أعلى النخل .

والحَبَب: تنضّد الأسنانِ ، وقيل : طرائق تظهر فى الخمر عند مزجها بالماء ، فأمّا الفقاقيع الّتى تعلو الخمر عند المزْج فهى الحَباب، بزيادة الألف ، قال المتلمّس[1]:

عُقارٌ أُعْتِقَتْ فى الدّنّ حَتّى كأنَّ حَبابها حَدَقُ الجَرَادِ[2]

---

(١) اللسان ــ ولع، جفف ، من غير نسبه .

(٢) شعراء النصرانية ٣٤٢ . والعقار : الخمر ؛ سميت عقارا لأنها عاقرت الدن ، والخمر العتيقة : القديمة .

وقال آخر :

حَمْراء قانيةٌ إذا ما شعشعَتْ ينزُو إلى وجهِ النَّديم حَبَابُهَا

* * *

فاستَجادَهُ مَنْ حَضَرَ واستَحْلاهُ ، واستَعادَهُ مِنْهُ واستَمْلاهُ ، وَسُئِلَ لِمَنْ هَذَا الْبَيْت ، وَهَلْ حَيٌّ قائِلُهُ أَوْ مَيْتٌ ؟ فقالَ : أيمُ اللهِ ، لَلْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَلَلصِّدْقُ حَقِيقٌ بِأَنْ يُسْتَمَعَ ؛ إنَّهُ ياقَوْمُ ، لَنَجِيُّكُمْ مُنْذُ الْيَوْمِ . قالَ : فَكَأَنَّ الْجَماعَة ارْتَابَتْ بِعِزْوَتِهِ ، وَأَبَتْ تَصْدِيقَ دِعْوَتِهِ . فتوجَّسَ مَا هَجَسَ فى أَفْكَارِهِمْ ، وَفَطَنَ لِمَا بطَنَ من استنكارِهِمْ ، وَحاذَرَ أَنْ يَفْرُطَ إِلَيْهِ ذَمٌّ ، أَوْ يَلْحَقَهُ وَهْمٌ ، فقرأ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ . ثمَّ قال : يَا رُوَاةَ الْقَرِيضِ ، وَأُسَاةَ الْقَوْلِ الْمَرِيضِ ، إِنَّ خُلاصَةَ الْجَوْهَرِ تَظْهرُ بالسَّبْكِ ، وَيَدَ الْحَقِّ تَصْدَعُ رِداءَ الشَّكِّ ، وَقَدْ قِيلَ فِيمَا غَبَرَ مِنَ الزَّمَانِ : عِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ ، وها أنا قَدْ عَرَّضْت خَبِيَّتِى[1] للاخْتِبَارِ ، وَعَرَضْتُ حَقِيبَتِى على الاعْتِبَار .

* * *

قوله : «استعاده» ، أى قال : أعده علىَّ . استملاه : طلب أن يكتبه . ايم الله : يمين يحلف به . نجيُّكم : محدِّثكم - يعنى نفسه . ارتابت : شكَّت والرّيب : الشكّ . بعزوته : بنسبته ، أى بنسبته إلى نفسه . دعوته : ادعاؤه أنه من قوله . والدِّعوة بكسر الدّال فى النّسب ، وبفتحها فى الطعام . فتوجَّس : أى أحسَّ وسمع . هَجَس : وقع وخطر . فطَن : شعر . فَطَن : خَفِىَ ، يريد أنه فهم منهم أنهم لم

(١) متن المقامات : « جنيتى » .

يصدّقوه فى أنّ الشعر له ، وأنكروا أن يقول مثله . حاذر : خائف . يفرُط : يسبق . القريض : الشعر . أساة : أطبّاء ، واحدهم آسٍ . القول المريض : الضعيف من قِبَل راويه . خُلاصة : ما خلص منه . وجواهر الأرض ، مثل الحديد والنحاس وغيرهما ، فإذ عرِض الجوهر على النّار ، فما كان منه خالصاً زاد صفاء وجوْدة ، ومالم يكن خالصاً فضحتْه النار وأظهرت عيبه . السّبْك : الاختبار بالنار . تصدع : تشق . غبَر : مضى هنا ، ويستعمل كثيرا بمعنى « بَقِيَ » وهو من الأضداد ؛ يقال : غبر الشيء غبوراً إذا بقى ، قال الله تعالى : ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانت مِنَ الغَابِرِينَ﴾[1] ، أى الباقين . الامتحان : الاختبار والبحث ، وهذا المثل من أمثال الفرس ، ولهذا أبعد مدّته حيث قال : غَبَر من الزمان . خبّيتى : مكتومى ، وما خبأته من علمى ، وأصل « خبّيتى » الهمز ، فقلبت همزته ياء وأدغمت فيها الياء ، كما قلبت فى « خاسية » . وتقول : عرَضت الشيء على البيع وعرّضته للبيع ، إن أتيتَ بعلى خفّفت الراء ، وإن أتيتَ باللام شدّدتها . والحقيبة : وعاء يجعله الراكب خلفه ، والاعتبار والاختبار واحد .

* * *

فابْتَدَرَ أَحَدُ مَنْ حَضَرَ ، وقال : أَعْرِفُ بَيْتاً لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مِنْوَالِهِ ، وَلاَ سَمَحَتْ قَرِيحَةٌ بِمِثَالِهِ ، فإِنْ آثَرْتَ اخْتِلاَبَ الْقُلُوبِ ، فانْظِمْ على هَذَا الأُسْلُوب :

فَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ
وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالْبَرَدِ

* * *

(١) سورة الأعراف ٨٣

قوله : «ابتدر»، أى سبق بالكلام وبادر به . والمِنْوال : خشبة الحائك ؛ يريد أنّ البيت رفيع الصنعة فى الشّعر لم يُصنع بيت مثله ،لأنّ الثوب أنواع ، وصنعة الشعر تشبه نَسْج الثوب . سمحتْ : جادت . قريحة : ذهن . آثرت : فضّلت . اختلاب القلوب : إمالتها إليك بتصديقك وانخداعك بما تبديه ، وهو من الخِلْب وهو من غشاء القلب . وعن أبى عبيدة وغيره قال ثعلب : الخِلْب : الّذى بين الزيادة والكبد[1] ، يقال: خَلَبنى حبُّ فلان،أى وصل حبُّه إلى خِلْبى ، وفلان خِلْب نساء ،أى تخلِبه النساء ، وخلاَّب : يخلب الناس ، أى يذهب بقلوبهم ، وخِلْب جمعه خلبة ، وكلّه من الخِلْب ، قال أعرابىّ :

مَنْ كانَ لم يدْرِما حُبٌّ جمعت له أو كان فى غفلة أو كان لم يَجِدِ
فالحبُّ أوّله رَوْعٌ وآخره مثل الحرارة بين الخِلْبِ والكَبِدِ

[انظم : قل شعرا منظوما . والأسلوب : الطريقة][2] .

لولؤاً : درًّا . النرجس : نوّار أصفر فى نوْره انكسار وفتور لا يكاد يُرَى ، له ورقة قائمة ، تشبّه به العينان إذا كان فى نظرهما فتور .

[ذكر النرجس وما قاله الشعراء فى تشبيه العيون به]

وقد تمادى إنكار أدباء وقتنا تشبيه العين بهذا النوّار الأصفر المعروف عندنا بالنرجس ،فأكثرهم ينكر أن يكون يقع به تشبيه لأجل صفرته ، وإن ذكرتُه لأحد قال : وأىّ صفرة فى العين إلّا أن يكون بصاحبها علّة اليرقان ! ويستهجن موضع التشبيه جدًّا .

وقد سألت عنه بعض أشياخى فى صغرى،وأنا أقرأ عليه كتاب «الجمل » وكان أديباً شاعراً،فأنكر وقوع التشبيه بهذا النَّوْر الأصفر ، وقال لى : النَّرْجِس عندهم

(١) من ج ٢ .
(٢) فى اللسان : الخلب ، بالكسر : حجاب الكبد ، وقيل :هو حجاب بين القلب والكبد

بالمشرق نَوْر يشبه نُوَّار الفول . وأكثر مَنْ لقيتُه يستبعدالتشبيه بهذا الأصفر ، لأجل لونه ، وذلك لقلّة تحصيلهم معرفة كلام العرب وتشبيهاتها ، والعرب توقع تشبيهاتها على الصورةدون المعنى ، وعلى المعنى دون الصورة ، وعليهما جميعاً؛وهو أكمل وجوه التشبيه . وانظر أقسام التشبيه فى الثالثة والعشرين تقع على علم هذا وغيره بإذن الله تعالى .

وتشبيه العيون بالسيوف والسِّهام ، إنما المراد به المَضَاء والقطع ، ولا يُلتفت فى ذلك إلى اللون ، وكذلك تشبيه العيون بالنَّرْجَس الأصفر إذا قصد ما فيه من الفتور واقع متمكِّن فى التشبيه ، ألا ترى ابن المعتزّ التفت إلى الفتور وحده حين قال :

وَسْنَانُ قد خَدَع النُّعَاسُ جفونَهُ فحكى بمقلتِه ذبولَ النَّرْجسِ (١)

والنَّرجس الذى يشبِّه به أهل المشرق العيون ،هو نباتٌ له قضبان خضر فى رءوسها أقماع ، يخرج منها نَوْر ينبسط منه على الأقماع ورق أبيض ، فى وسط البياض دائرة قائمة من ورق صغير . هذه الصفة التى تقع فى أشعارهم إذا ذكروا النّرْجس ، وبذلك وصفه كسرى أنوشروان ، فقال : النَّرْجس ياقوت أصفر ، بين دُرٍّ أبيض على زمرّد أخضر ، أخذه بعضهم فقال فيه :

وياقوتةٍ صفراء فى رأس دُرَّةٍ مركَّبة فى قائم من زَبَرْجَدِ
كأنّ بهىّ الدرّ عِقْد نظامها فريدٌ أنيقٌ قد أطافَ بعَسْجَدِ

وأنشد أبو عَوْن الكاتب فى كتاب التشبيه له ، فقال : من جيّد ما قيل فى النرجس ما أنشده المبرّد رحمه الله تعالى :

(١) ديوانه ١ : ٦٨ .

تَرجِسَةٌ لاحظنِي طرفُهـــا تشبِهُ ديناراً على دِرْهَمِ[١]

وقال عبيد الله بن عبد الله فيه :

ترنو بأبصارها إليك كَمَا تَرْنُو إذا خافِت اليعَافِيرُ[٢]
مثل اليواقيت قد نُظمنَ عَلَى زمرّد فوقهنّ كافـــورُ
كأنّهـا والعيـــون ترمُقها دراهمٌ وَسْطَهَـا دَنَانِيرُ

وقال أبو نواس :

لَدَى نرجسٍ غضِّ القِطافِ كأنه إذا ما منحناه العيونَ عيونُ[٣]
مخالفـة فى شكلهنّ وصفرةٌ مكانَ سوادٍ والبياض جفُونُ

أَجاد التشبيه ، وكشف بذكر المخالفة قناع الشبهة ، وبيّن مواقع التشبيه غاية البيان .

وقال أبو عبد الملك بن فرج فى كتاب الحاسّ والمحسوس، له : وأحسن بيتٍ أنشدنيه أبو جعفر البغداديّ رحمه الله :

مَدَاهِنُ درّ بين أوراق فِضّةٍ على تِيس شبر أخضرٍ كالزَّبرْجَدِ

وقال أبو الفرج الببغاء :

ونرجس لم يَعْدُ مُبْيَضُّهُ الْـ ـكَأْسَ ولا أصفره الرَّاحَا[٤]
تخال أحداق لَجُيْنٍ حَوَتْ من أصفرِ العسْجَدِ أقدَاحَا
كأنمـا يُهـــدى المحيّى به لطفاً إلى الأرواح أرْوَاحَا

---

(١) كتابة التشبيه ١٩١ ، نهاية الأرب ١١ : ٢٣٥ .
(٢) كتاب التشبيه ١٩١ ، نهاية الأدب ١١ : ٢٣ ، واليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبي بلون التراب
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣
(٤) يتيمة الدهر ١ : ٢٢٨

يغنى عن الوَرْد إذا مارنا ويخلف الوَرْد إذا فاحا

وقال ابن المعتزّ :

كأنّ عيونَ النَّرجس الغَضِّ بيننا مَداهنُ درٍّ بينهنّ عقيقُ[1]

إذا بلّهنّ القطر خلت دموعه بكاءَ عيون كحلهنّ خَلُوقُ

وقال النّاشئ :

أخصّ الصفات التى تناولها مَنْ كَتَبْ

عيونٌ بلاَ أوْجُهٍ لها حدَقٌ من ذَهَبْ

وقال ابن الرومىّ :

يانرجسَ الدّنيا ترى أبداً للإفتراج ودائم النّخب

ذهبُ العيون إذا مَثَلْنَ لنا درّ الجفون زَبَرْجَد القصَب

وهذه الصفة التى أثبتها أهل المشرق للنَّرْجس، هى التى يصف بها أهل المغرب البهار ، قال ابنُ أبى عامر فى جارية اسمها بهار :

حَدَقُ الحسان تقرّ لى وتَغارُ وتظلّ فى صفة البهار تَحَارُ

طلعتْ على قضبى عيون كمائمى مثل العيون تحفّها الأشفارُ

وأخصّ شىء بى إذا شبَّهتنى درّ تمنْطَقَ سلكَهُ دينارُ[2]

أهدَى لنا قُضْبَ الزَّبَرْجَد ساقُهُ وحَباهُ أنفسَ عطرِه العَطّارُ

أنا نرجسٌ حقًّا بهرت عقولهمْ ببديع تركيبى فقيل بهارُ

بَيَّن أن البهار عندنا ، هو الذى تسميه أهل المشرق نَرْجسًا .

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ .

(٢) كذا فى ج ، وفى ط : « سلكويسار » .

وقال أبو جعفر بن برد :

تأمّل فقد شقّ البهار مغلّسًا كمائمه عن نوره الخضلِ النّدِى[1]
مداهنُ تبرٍ فى أناملِ فِضّـةٍ على أذرع مخروطةٍ من زَبَرْجَد

وقال القسطلىّ[2] :

بهارٌ يروقُ بمسكٍ ذكىٍّ وصنعٍ بديع وخَلْقٍ عَجَبْ
غصون الزَّبَرْجَدِ قد أورقَتْ بها فضة نوَّرَت بالذَّهَبْ

وقال القاضى أبو الحسن بن لبّال :

وبَهارٍ يحكى كئوسَ لُجَيْنٍ حملتْها أناملٌ من زَبَرْجَدْ
سامرتها الكواكب الزُّهر حتى سمّرتْ وسطَها كواكبُ عَسْجَدْ

وأنشدنى بعض أشياخنا :

انظُرْ إلى حُسْنِ البَهارِ وغُنْجِهِ يرنُو إليكَ بمقْلَتَىْ وَسْنَان
فكأنما هى راحةٌ من فِضَّةٍ قد ضُمِّنَتْ كأسا من العِقْيَانِ
وكأنَّ نشْرَ نسيمه غبّ النَّدَى يأتيكَ بالأنفاسِ مِنْ بَغْدَانِ

والّذى تسميه أهل المغرب نرجساً يسمّيه أهل المشرق بهاراً ، ولذلك قال الحريرىّ فى العاشرة : « ووِرْدتى بالبهار » ، دعا فيها على الغلام بالحمّى ، وأن ينعكس حمرة خدّه صفرة ، وقال حبيب فى ذلك :

إنَّ وجْهَ الحمَّى لوجهٌ صفيقٌ حين تسطو به نَهاراً جَهارا[3]
لم تَشِنْ وَرْدَ وَجْنَتَيْه ولكنْ صيَّرتَ وَرْدَ وجنتيه بَهارا[4]

(١) الذخيرة ٢ : ٤٩
(٢) هو ابن دراج ، ديوانه ٣٨ .
(٣) ديوانه ٤٤١
(٤) الديوان : « لم تشن وجهه المليح » .

وبلون النرجس يشبّه أهل الأندلس المريض .

وقال أبو بكر الأبيض :

ياشاكيا صدّنى عن مسّه ألمى ... طال اشتياقى به ليلاً فلم أنَمِ
تضاءل الدَّهرُ إشفاقا على قمرٍ ... رقيبه فى سماء المجدِ والكَرَمِ
لم أرضَ قلبى مكانا إذ حللت به ... حتى خلطتك فى سَوْادَئِه بِدَمِى
أنْتَ النَهَار ولا أدرى متى خَلَعَتْ ... عليك أيْدِى اللَّيالى نَرْجِسَ السَّقَمِ

ولابن الزقّاق :

وغزالٍ ذى اعتدالٍ شَفَّهُ ... بعد ما شقّ هَوَاه الأنفُسَا[1]
جارت الحمّى على وجنتِه ... فاستحال الوردُ منه نَرْجِسَا

فثبت بما قدمناه، أنّ نرجسهم نَهارُنا ، وأن نَهارَهم نرجسنا . وآكدُ مايدلّ على صحته اشتراكُ البيت الذى أنشده أبو الفرج على النَّرجس مع بيت ابن بُرْد فى لفظٍ واحدٍ ، أخذ ابن بردٍ منه صفة النرجس ، فقلبه لاسم النَهَار حين نظمه .

واعْلَمْ أن تشبيه العين بنرجسهم أبْيَن لتعلّقهم بالصورة ، وأن تشبيهها بنرجسنا أدون لتعلّقه بالمعنى، وهو مع ذلك متمكّن فى باب التشبيه ، وأنّ اسم النرجس لابد فيه من صفرة .

وقدقال شاعر من المشرق ،وهو أحمد بن يونس الكاتب فى مناقضة ابن الرومىّ فى تفضيله النرجس على الورد :

---

(١) ديوانه ٢٩٣ .

إن كُنْتَ تنكِرُ ماذَ كَرْنَا بعد مَا قامتْ عليه دلائلٌ وشواهدُ[1]
فانظر إلى المصفرّ لوناً منهما وافطِنْ فما يصفرُّ إلا الحاسِدُ

فلولا ما ذكرنا من أشعارهم ، لحكمنا بهذا البيت ، على أن نرجسهم هو نرجسنا ، ومذهب ابن الرومىّ[1] تفضيله على الورد ، وهو القائل :

وأحسن ما فى الوجوهِ العيو نُ وأشبه شىء بها النَّرْجِسُ

والنُّفوس تتشوّق إلى رؤية نَرْجسهم ، لأنّا لم نعلم نرجسنا غير هذا الأصفر ، حتى نعلم بما ذكرناه أنّه هو النوّار المعروف ، وهم أيضا يتشوّقون لمنظر نرجسنا .

ويدلّ على ذلك حكاية القاضى الفقيه أبى الحسن بن **لبّال** ، قال : خرجت عشيّةً لخارج إشبيليّة أيام حداثتى وقراءتى بها ، فجلست فى وسط واديها ، وبيدى كتاب أنظر فيه ، وإذا رجلٌ يُحملق حوالىّ ، فإذا نظرتُ فى الكتاب يأخذ وينشد للأشعار التى بين أيدينا نظائر من بديع الشعر ، فذاكرته فوجدته بحرَ أدبٍ ، فسألته عن محفوظه ، فقال : أحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر ، فسألته : هل تنظم شيئاً؟ فأنشدَنى فى وصف فرس ، وزعم أنه القائل :

---

(١) أورد النويرى فى نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ من شعر ابن الرومى أبياتا منها :

خجلتْ خدودُ الوردِ مِنْ تفضيلهِ خجلاً تورُّدُها عليهِ شاهِدُ
لم يخجل الوردُ المورّدُ لونه إلا وناحِلهُ الفضيلَةَ عائد
للنّرجسِ الفضلُ المبينُ وإن أبى آبٍ ، وحادَ عن الطريقةِ حائدُ
فصْل القضيةِ أن هذا قائدٌ زَهْر الربيع ، وأن هذا طارِدُ
شتان بين اثنين : هذا موعِدٌ بتسلُّبِ الدُّنيا ، وهذا واعِدُ

منع الحوافر أن تَطين به الثَّرَى فكأنه فى جريه متعلِّقُ
وكأنّ أربعة توافق طرفَه فتكاد تسبقه إلى ما يرمقُ

فاستعدت بيته ،وراجعته فى قوله : « تطين» ، فقلت له : إنما هو «تطأن» ،فلم يعرف اللفظ ، وإنما تكلّم بلا همز على لحن عامته ، فجرّبته فى غيره ، فوجدت شعرَه من جهة الطبع وكثرة الحفظ ،لا من جهة العلم ، فسألته عن بلاده ، فقال : أنا من العراق ، فقلت له : فما السبّب الذى جاء بك إلى الأندلس ؟ فقال لى : لأرى النَّرجس الأصفر المذكور فى أشعاركم عياناً . ودعانى إلى الإطالة فى ذكر النّرجس رغبةً أن أرفع عن غيرى حَيْرة الشبهة التى أقمت فيها زماناً طويلا ، لا أجد من يرفعها عنى .

[ذكر الوأواء الدّمشقى وبعض شعره]

والبيت الذى اقتضى النَّظم على أسلوبه هو لأبى الفرج الغسّانى الدّمشقىّ ، المعروف بالوأواء ، ذكره أبو منصور الثعالبى فى يتيمته[1] ، فقال : أبو الفرج من حسان الدهر ، وصاغة الكلام[2] .

ومن عجائب أمره أنه كان منادياً بدار البِطّيخ بدمشق ينادى على النواكه ، وما زال يشعر حتى جاد شعره ، ووقع له مايروق ، ويشوق ويفوق ، حتى تعلّق بالعيّوق[3] .

وقال الفتح بن خاقان : إنى انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين ، فلما

---

(١) يتيمة الدهر : ٢٣٦ وما بعدها .
(٢) اليتيمة : « من حسنات الشام ، وصاغة الكلام » .
(٣) اليتيمة : « حتى يعلو العيوق » ، والعيوق : نجم أحمر مضىء وطرف المجرة الأيمن لو الثريا لا يتقدمها .

دخلت مجلسى لقيت خلافة[١] جاريتى ، فلم أتمالك أن ، قبّلتُها ،فوجدت ما بين شفتيها هواء، لو رقد المحموم فيه لأفاق . وهذا مستظرَف من كلام الفتح ، فقال الوأواء ملمًّا به[٢] :

سَقَى الله ليلاً طاب إذ زار طيفُه ... فأفنيتُه حتى الصَّبَـــاح عِنَاقَا[٣]
بطيب نسيمٍ منه يُستجلب الْكَرَى ... فلو رقد المحـــموم فيه أَفَاقَا[٤]

وله أيضاً :

بالله ربّكما عُوجاً على سَـــكَنِي ... وعاتباه ، لعلّ العَتْبَ يَعْطِفُـــهُ[٥]
وعرّضَا بِي وقولاَ فى حديثكما ... ما بالُ عبدِكَ بالهِجْرانِ تُتْلفُهُ !
فإن تبسّم قولاَ فى ملاطفةٍ[٦] ... ما ضرّ لو بوصالٍ منكَ تُسْعِفُهُ !
وإن بدا لـكما من سَيّدِى غضبٌ ... فغالطاه ، وقولا : ليس نعرفُـــهُ

وله فى النحول :

وما أبقَى الهوى والشوقُ منِّى ... سِوَى رُوحٍ تَردّدُ فى خَيالِ[٧]
خفيتُ عن العواذل أن ترانِي[٨] ... كأنّ الرُّوحَ منِّى فى مُحالِ

---

(١) اليتيمة : « استقبلتنى فلانة — يعنى جارية له — فلم أتمالك أن قبلتها » .
(٢) اليتيمة : « فكان هذا مما يستحسن ويستظرف من كلام الفتح » .
(٣) ديوانه ١٦٤
(٤) الديوان : « ولو رقد المخمور » ، وبعده هناك :
تَملّكَنِي لمّا تَمَلَّكَ مُهْجَتِي ... وَفَارقنِي لَمّا أَمِنْتُ فِرَاقَا
(٥) ديوانه ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٦) الديوان : « فى ملاطفة » .
(٧) ديوانه ١٨٩ .
(٨) الديوان : « عن النوائب » .

وله في الزّرقة :

يامَنْ هُو الماءُ في تكوين خِلْقَتِهِ ... وَمَنَ هُوَ الخرُّ في أفعال مُقْلَتِهِ[1]

ومَنَ بزُرْقَةِ سيفِ اللحظِ طَلّ دَمِي ... والسيف ، مافَخْرُهُ إلا بزُرْقَتِهِ

علّمتَ إنسان عيني أن يعوم فَقَدْ ... جادت سِبَاحته في بحر دمعتِهِ

وله أيضاً :

تملَّكْتَ يامهجَتِي مهجتِي ... وأسهرت يا ناظرِي ناظرِي[2]

وما كان ذا أملي يا ملولُ[3] ... ولا هجسَ الهجرُ في خاطرِي[4]

فجُدْ بالوصالِ فدتْكَ النفوسُ ... فلستُ على الهجرِ بالقادر

ونيلك تعلَّمتُ نَظْمَ القَريضِ ... فلقَّبَنِي النَاسُ بالشاعِرِ

وله من قصيدة :

يُقِمْنَ لنا بَرْقَ الثُغور أدِلّةً ... إذا ماضَلِلْنَا في ظلامِ الذَّوائِبِ[5]

قال : ومن بديع تشبيهاته قوله :

فأمْطَرَت لؤلؤاً من نَرْجِسٍ ... البيت[6] .

---

(١) ديوانه ٦٥ ، وبعده :

وَمَنْ خاتُ عِذَارِي في هوايَ لَهُ ... وَمَنْ تهتَّك سِتْرِي في مَحَبَّتِهِ

(٢) ديوانه ٩٩ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

(٣) الديوان : « يا ظلوم »

(٤) الديوان : « ولا خطر الهجر » .

(٥) من قصيدة مدح بها سيف الدولة ، وأولها :

قِفوا ماعليكم مِنْ وقوفِ الركائِبِ ... لنبذل مَذْخُور الدُّمُوع السواكِبِ

(٦) ديوانه ٨٤ .

ثم قال : هذا البيت ضمّنه خمسة تشبيهات بغير أداة التشبيه ، وذكر المتنبّى منها أربعة فأجاد ، وهى ما ضمّنها قوله رحمه الله :

بَدَتْ قَمَراً ، ومالَتْ خُوطَ بانٍ ، وفاحتْ عنبراً، ورنّت غَزَالاَ[1]

وللفقيه أبى محمد بن حزم خمسة تشبيهات فى بيت واحد ، ولا يقدر أحد على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العَروض ولا أبنية الأسماء أكثر من ذلك ، قال :

خلوتُ بها والكأس ثالثةٌ لنا وجُنْحُ ظَلامِ اللَّيلِ قد مدّ واتّلَجْ[2]
فتاةٌ عدِمْتُ العيشَ إلّا بقربِها وهل فى ابتغاء العيش وَيْحَكَ من حَرَجْ!
كأنّى وهى والكأس والخمر والدُّجَى ثرًى وَحَيًا والدّرّ والتِّبْر والسَّبَجْ

وقبل بيت الوأواء :

إنسيّةٌ لو بدتْ للشمس ما طَلعتْ للنّاظرين ولم تغربْ على أحدِ
قالت وقد فتكتْ فينا لواحظُها : ما إن أرى لقتيل الحبِّ من قَوَدِ[3]
فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتْ وردًا وعضّتْ على العُنّابِ بالبرَدِ

ثم استمـــرتْ وقالت وهى ضاحكةٌ :

قومُوا انظُروا كيف فِعْلُ الظَّبْيِ بالأسَدِ ![4]

وأول القصيدة :

لمّا وضعتُ على صدرِى يدًا لِيَدِ وصحْتُ فى اللّيلة الظلماء وا كبدِى![5]

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٤ .
(٢) طوق الحمامة ١٥ .
(٣) الديوان : « كم ذا أما » .
(٤) سقط هذا البيت من رواية الديوان ، وموضعه هناك :
كأنما بين غابات الجفونِ لهَا أُسْدُ الحمامِ مقيماتٍ على الرَّصَدِ
(٥) لم يرد هذا البيت فى الديوان .

وقال أيضاً :

أتاني زائراً مَنْ كانَ يُبْدِي ... لِيَ الهجرَ الطَّويل ولا يزورُ[1]
فقالَ النَّاسُ لمَّا أبصروه ... لِيَهْنِكَ زارَكَ القمرُ المنيرُ
فقُلْتُ لهم ودمعُ العين يجرِي ... على خَدِّى له دُرٌّ نَثِيرُ
ولو نَصَبُوا رحًا بإزاء عيني ... لكانت من مدامعها تدورُ[2]

* * *

فَلَمْ يَكُنْ إلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أوْ هُوَ أقْرَبُ ، حَتَّى أنْشَد فأغْرَب :

سَأَلْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضْوَ بُرْقُعِهَا الْـ
ـقَانِى وإيدَاعَ سَمْعِى أطْيَبَ الْخَبَرِ
فَزَحْزَحَتْ شَفَقاً غَشَّى سَنَا قَمَرٍ
وَسَاقَطَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ خَاتَمٍ عَطِرِ

* * *

قوله: «لمح البصر» ، يعنى نظر العين إلى الشىء بسرعة ثم تغيب عنه بسرعة، وأصل البصر الإدراك بالعين . أغرب : أتى بغريب . نَضو : كشف . القانى : الأحمر . إيداع سمعى : إعطاء أذنى، كأنه جعله وديعة عنده. زحزحت : أزالت . الشفق : حمرة الشمس بعد الغروب . غشّى : غطّى. سنا : ضوء . عطِر : فوّاح طيّب التنفس . وبيت الحريرىّ فى صنعة البديع فائق ، وإن لم يأت بعد تشبيهات بيت أبى النرج ، وبيانه أن أبا الفرج يصف امرأة باكية ، فيقول : إنها نثرت دموعها عَلَى مَنْ قتلت من عشاقها ، فسقطت على خدّها فبلّته ، وانفضّت

(١) ديوانه ١١٠ .
(٢) الديوان : « من تحدره » .

على أصابعها المصبوغة بالحِنَّاء بأسنانها، فجعل البيت كُلَّه استعارة ، فقال : « فأمطرت لؤلؤاً »، وهو يريد : بكَتْ دمعاً ، وذكر نرجساً ووروداً ، وهو يريد عيناً وخدًّا ، وذكر عُنَّاباً وبَرَداً ، وهو يريد أنامل وأسنانا ، فضمَّن تحت ألفاظه هذه المعانى، وزاد فائدة التشبيه ؛ وهذا يفعله أهلُ القدرة على الشعر ، فقابل الحريرىّ هذا بقوله : «نزحزحت شفقاً» ، وهو يرى نقاباً أحمر ، وذكر «سنا قمر» وهو يريد ضوء وجهها ، وذكر لؤلؤاً من خاتم ، وهو يريد كلاما من فم . والبيت الثانى فى مقابلة بيت أبى الفرج ، والأول توطئة له ، وهو يصف امرأة زارته متنقّبة فسألها ، أن تكشف عن وجهها وتحدّثه ، فأزالت نقابها ، وأسمعته كلاما حسناً من فم عطر .

[مما ورد من تشبيه الأشياء باللؤلؤ]

واللؤلؤ تشبّه به الأسنان فى مثل قوله :

* كأنما يبسم عن لؤلؤ رطب *

وقوله :

* يفتر عن لؤلؤ رطب وعن بَرَدِ *

ويشبَّه به الكلام فى مثل قول البحترىّ :

* ومن لُؤْلؤٍ عند الحديثِ تساقِطُه[1] *

وقول الحريرىّ :

* وساقطت لؤلؤاً من خاتَمٍ عطِرِ *

ويشبّه به الدمع ، كقول الوأواء : « فأمطرت لؤلؤا » ، وهو كثير .

ومن أحسنه قول الشاعر :

ولمّا وقفنَا للوداعِ ودَمْعُها ... ودَمْعِى يُثِيرَانِ الصَّبابَةَ والوجْدَا

بكت لؤلؤا رطْباً ففاضت مدَامِعِى ... عَقِيقاً ، وصار الكلّ فى نحرها عِقْدَا

وقال ابن عبد ربه :

وكأنما غاص الأسى بجفونها ... حتى أتاك بلؤلؤ منثورِ

(١) ديوانه ١٢٣٠ ، وصدره :

* فمِنْ لُؤْلؤٍ تجْلُوه عِنْد ابْتِسامِهَا *

فأخذه الرمادى فحسّنه فقال :

ولم أَرَ أحْلَى مِنْ تبسّم أعْيُنٍ غداة اللِّوى عن لؤلؤ كان كامِنَا

قال : فوقعت استعارة التبسّم للعين موقعاً لطيفاً ، وإنما هو للثغر بسبب توسط اللؤلؤ . والحذّاق يتحيّلون فى أخذ المعانى بترك القافية والوزن ، كقول ابن شُهيد :

وَلمّا فشَا من دمعنا بعض سِرِّنا إلى كاشحينا والقلوب كواتمُ
أَمَرْنَا بإمساك الدُّموع جُفُونَنَا ليشجى بما يطوى عذولٌ ولائمُ
أَبَى دمعُنا يجرى مخافةَ شامتٍ فنظَّمَهُ بين المحاجر ناظِمُ
وراقَ الهوَى منّا عيونٌ كريمة تلمَّحن حتى ما تروق المَباسِمُ

[من قولهم فى الامتحان]

وقال ابن شُهيد فى الامتحان فأحسن :

ونُبِّئْتُ أقواماً تجيشُ صدورهم عَلَىَّ وأنِّىَ منهمْ فارغُ الصَّدْرِ
أصاخُوا إلى قَوْلِى فأسمعتُ صُمَّهم وغاصوا على سِرّى فأعياهُمُ أمْرِى
فقال فريق: ليس ذا الشعرُ شِعْرَهُ وقال فريق لَيْمنُ الله ما نَدْرِى
فَمَنْ شاء فليَخبرْ فإنِّى لحاضرٌ ولاشىء أجْلَى للشّكُوكِ من الخُبْرِ

وينظر فى هذا الامتحان ونسبة شعره فيه إلى الانتحال ، إلى قصة أبى بكر ابن بَقِىّ[1] حين استهدى بعضَ إخوانه أقلاما ، فبعث إليه بثلاث من القصب ، وكتب معها :

خُذْها إليك أبا بكرِ العلاَ قَصَباً كأنّما صاغها الصَّوّاغ من وَرِقِهْ
يُزْهَى بها الطِّرس حسناً ما نثرت به مسكَ المدادِ على الكافور من وَرَقِهْ

(١) هو أبوبكر بن بقى ، ذكره أبو الفتح بن خاقان فى القلائد ٣٢٢ ضمن من ذكرهم من الأدباء .

فأجابه أبو بكر بن بَقِيّ فقال :

أرسلت نحوى ثلاثاً من قَنَا سلبٍ ... ميّادة تطعن القِرْطاسَ فى وَرَقِهْ
فاللحظُ ينكرها والخطّ يعرفها ... والرقّ يخدمها بالرق فى عُنُقِهْ

فحسده عليها بعض مَنْ سمعها ، ونسبه إلى الانتحال ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأوّل :

وجاهلٍ نسبَ الدَّعْوَى إلى كَلِمى ... لمّا رماه بمثل النَّبْلِ فى حَدَقِهْ
فقلت مِنْ حَنَقٍ لمّا تعرّضَ لى : ... مَنْ ذا الّذى أخْرَجَ اليَرْبُوعَ من نَفَقِهْ !
ما ذمّ شعرى وَايْمُ الله لى قسمٌ ... إلا امرؤ ليست الأشعارُ من طُرُقِهْ
الشِّعر يشهد أنّى فى كواكبه ... بل الصّباح الذى ينشقّ فى أُفُقِهْ

[بديهة السّلامىّ]

وخرج السّلامىّ[1] إلى الموصل وهو صبىّ حين راهقَ البلوغ ، فوجد بها أباعثمان الخالدىّ وأبا الفرج الببّغاء وأبا الحسن التّلّعفرىّ وشيوخ الشعراء ، فلما رأوْه عجبوا منه ، واتّهموه فى شعره ، فقال الخالدىّ : أنا أكفيكم أمرَه . فاتخذ دعوة ، وجمع الشعراء والسّلامىّ معهم ، فلما توسّطوا الشراب ، أخذ فى التفتيش عن قَدْرِ بضاعته ، ثمّ لم يلبثوا أن جاء مطرٌ شديد وثلج وبَرَدٌ عَمَّ الأرض كثرة ، فألقى أبو عثمان الخالدىّ نارنجاً بين أيديهمْ على ذلك البَرَد ، وقال : يا أصحابنا ، هل لكم فى أن نصف ذلك ؟ فقال السّلامىّ ارتجالا :

لله درّ الخالدىّ الأوْحد النَّدْبِ الخطيرِ
أهدى لماءِ المُزْنِ عند جمودِه نارَ السَّعيرِ
حتى إذا صَدَرَ العتا ب إليه من حَنَقِ الصُّدُورِ[2]

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد السلامى ، نسبة إلى مدينة السلام ، أشعر أهل العراق فى عصره ، وممن ترجم لهم الثعالبى فى اليتيمة ٤ : ٣٦٤ ـ ٣٩٨ ، والخبر فى ترجمته فى ابن خلكان ١ : ٥٢٤ .

(٢) ابن خلكان : « من حر الصدور » .

بعثتْ إليــــه بعـــذره من خاطرى أوفى السُّرورِ
لا تعـــذُلُوه فإنَّمـــا أهدى الخدود إلى الثُّغُورِ

فأمسكوا عنه عندذلك ، واعترفوا له بالفضل ، إلاّ التّلعفرىّ ، فإنه أقام على قوله فيه ، حتى قال السَّلامىّ فيه:

يا شاعراً بشعوره لم يَشْعُـرِ ما كنتَ أوّلَ طالبٍ لم يَظْفَرِ
لو كنت تعرفُ والدًا تسمُو بهِ لم تنتسبْ صفةً إلى تلّعـفَرِ
تاه ابنُ فائقةِ الفُسوق على الوَرَى بقذال صَفْعَانٍ ونكهةِ أبخَرِ
وبلادةٍ فى الشِّعر تعـــلم أنه تيسٌ ولو نُصِرتْ بطبع البُحترِى

وقال فيه :

سما التلّعفرىّ إلى وصـــالِى ونفس الكلبِ تكبُر عن وصالِهْ
ينافى خُلقـــه خُلقِى وتأبَى فعالى أنْ تضاف إلى فعـــالِهْ
فصنعتىَ اللطيفـــة فى لسانى وصنعتهُ الخسيسة فى قَـــذَالِهْ
فإن أشْعُرْ فما هو من رجالى وإنْ يُصْفَعْ فما أنا من رِجالِهْ

[من نوادر صاعد بن الحسن الربعىّ]

وكان المنصور بن أبى عامر قد أثبت عنده الحسَدة ، أنَّ صاعداً[1] اللغوى متَّهم فى كل ما يورده من حديث أو شعر ، فأدخلتْ عليه يوماً باكورَةُ وَرْد لم تتفتح أكمامها ، فقال فيها صاعد ارتجالاً :

أتتـــك أبا عامرٍ وردةٌ يذكِّرُكَ المسكُ أنفاسَهَا
كعَذراء أبصرها مبصرٌ فغطَّتْ بأكمامها رأسَهـــا

فسرّ بذلك المنصور . وكان ابن العريف حاضراً فحسده وقال : إن هذين

(١) هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربعى ، وفد على المنصور بن أبى عامر ببغداد ، وله معه أخبار ونوادر مشهورة فى الأدب واللغة ، ابن خلكان ١ : ٢٢٩ .

البيتين لغيره ، [وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندى على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : أرنيه . فخرج ابن العريف ، وركب وجعل بحث، حتى][1] أتى مجلس ابن برد ـ وكان أحسن أهل وقته بديهة ـ فوصف له ما جرى فقال :

عشوتُ إلى قصر عبَّاسةٍ وقد صرّع النّومُ حرَّاسَها[2]

أبياتاً ضمّن فيها البيتين ، فكتبها ابن العريف بخطّ بصرىّ[3]، وصار بها إلى المنصور . فاشتدّ غيظه ، وقال : غداً أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان لم يبق فى موضع لى فيه سلطان.[4] ثم أخذ طبقاً فيه ضروب من الأنوار ، وعليه جوارٍ ياسمين[4] على بركة ماء حصباؤها الدّر والجوهر . ودعاه فى مجلس حافل ، وقال له : هذا طبق فيه شىء ما توهمت أنه قدِّم بين يدى مَلِك قبلى ، فصفه فقال على البديهة :

أباعامرٍ هل غيرك جدواك واكفُ وأعجب ما يلقاه عندك واصفُ[5]!

---

(١) من الذخيرة .

(٢) بعده كما فى الذخيرة :

فألفيتُها وهى فى خدرها وقد صرّع السّكر أنَاسَها
فقالت : أسارٍ على هَجْعةٍ ؟ فقلت : بَلَى ، فرمَتْ كَاسَها
ومدّتْ يديها إلى وردَةٍ يحاكى لك الطيبُ أنفاسها
كعذراءَ أبْصَرها مبصرٌ فغطّت بأكْمَامها رَاسَها
وقالت : خف الله لا تفضحنّ فى ابنة عَمّكَ عباسها
فولّيتُ عنها على عِفّةٍ وما خفتُ ناسى ولا ناسَها

(٣) الذخيرة . « مصرى » .

(٤ـ٤) الذخيرة : « وقد أعد طبقاً فيه سقائف من ضروب النواوير، ووضع على السقائف جوارى ياسمين » .

(٥) الذخيرة :

* وهل غير مَنْ عَادَاك فى الأرضِ خائفُ *

وبعده :

يسوق إليك الدّهْرُ كلّ عجيبةٍ وأعجب ما يلقاه عندك واصفُ

وشائعُ نَوْرٍ صاغها هامرُ الحيا حُلِيًّا فمنها عَبْقَـرٌ ورفارفُ
ولمّا تناهَى الحسن فيها تقابلَتْ عليها بأنواع الملاهى الوصائفُ
كمثل الظباء المستكنَّة كُنَّسًا تظلّلها بالياسمين السَّقائفُ
فلم ترعينى فى البلاد حديقةً تنقِّلها فى الراحتين المناصِفُ[1]

والحكاية بطولها فى القسم الرابع من الذخيرة.[2]

وخرج معه إلى أرض **الزاهرة**[3]، فمد يده إلى شىء من الترنجان يعبث به، ورمى به إلى صاعد معرّضاً بأن يصفه، فقال :

---

(١) بعده فى الذخيرة :

وأعجب منها أنهنّ نواظِـرٌ إلى بركةٍ ضُمَّتْ إليها الظرائفُ
حصاها اللآلى، سابحٌ فى عُبابِهَا من الرُّقش مسموم اللعابَيْنِ راجِفُ
ترى ما تشاء العينُ فى جنباتِهـا من الوحش حتّى بَيْنَهُنَّ السلاحِفُ

قال فى الذخيرة بعد هذا البيت :

فاستغربت له يومئذ تلك البديهة، وكتبها المنصور بخطه، وكان إلى ناحية سقيفة فيها جارية تجذف بمجذاف ذهب، لم يرها صاعد، فقال له المنصور: أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية، فقال :

وأعجبُ منهـا غادة فى سفينةٍ مكلّلة تصبو إليهـا المهـايِفُ
إذا راعها موجٌ من الماء تتّقِى بسكّانها ما أنذرته العواصفُ
متى كانت الحسناء ربّان مركبٍ تصرّف فى يمنى يديها المجاذِفُ
فلم تر عينى فى البلاد حـديقةً تنقّلهـا فى الراحتين المناصِفُ

إلى آخر الأبيات.

(٢) الذخيرة ٤ : ٨ — ١١.

(٣) الذخيرة : « إلى رياض زاهرة ».

لم أدْرِ قبل ترنجان عبثت بهِ ... أنّ الزُّمرّد قضبان وأوراقُ[1]
من طيبه سَرَقَ الأُترجّ نكهَتَهُ ... ياقوم حَتّى منَ الأشْجار سُرّاقُ!
كأنما الحاجب المنصور علّمه ... فعلَ الجميل فطابت منه أخلاقُ
مَنْ ليس يقعده عن سُؤْدد كرمٌ ... ولا يقوم له فى سوءة سَاقُ

وله أيضاً :

بعثت إليك من خيرىّ دارى ... محزّمة كألوان العقيقِ[2]
تُوكّلُ بالعكُوف على التّصابى[3] ... وتصطاد الخليع من الطريقِ

* * *

فحار الحاضرون لِبَدَاهَتِهِ ، واعترفوا بِنَزَاهَتِهِ . فلمَّا آنَسَ استئناسَهُمْ بكلامِه ، وانصبَابَهُمْ إلى شِعْبِ إكْرَامِهِ ، أطْرَقَ كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ ، ثم قال : ودُونَكُمْ بيتيْنِ آخَرَيْنِ ، وأنشد :

وأقْبَلَتْ يَوْمَ جَدَّ البَيْنُ فى حُلَلٍ
سُودٍ تَعَضُّ بنانَ النَّادِمِ الحَصِرِ
فَلاَحَ لَيْلٌ عَلَى صُبْحٍ أقَلّهُمَا
غُصْنٌ وضرَّستِ البِلّوْرَ بالدُّرَرِ

فحينئذٍ اسْتَسْنَى الْقَوْمُ قِيمَتَهُ ، واستَفْزَرُوا دِيمَتَهُ ، وأجْمَلُوا عِشْرَتَه ، وجَمَّلُوا قِشْرَتَه .

* * *

(١) الذخيرة ٤ : ١٢ .
(٢) الذخيرة ٤ : ٤٨ .
(٣) الذخيرة : «بالعزوف عن التصابى» .

قوله: «لبداهته» ، أى لارتجاله وإنشاده من غير فكرة ، ويقال : بدهه بَدْهاً وبديهة وبَدَاهة ، إذا فجأهُ . وبده فى كلامه : إذا لم يتفكّر فيه ، وفلان حسن البَديهة والبَدَاهة ، أى الارتجال .

[مما قيل فى البديهة الحاضرة]

والقول من غير تفكّر وهو عندهم مما يمدح به ، وإن كانت الإصابة غالباً فى الرويّة وإطالة الفكرة ، كما قال عبدالله بن وهب الراسبىّ للخوارج حين عقدوا له : دَعُوا الرأى حتى يختمِر ، فلا خير فى الرأى الفطير ، والقول القصير .

وقال المنصور لكاتبه : لا تبرم أمراً حتى تفكّر، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسَنه من قبيحه .

وقال أيضاً : الحكمةُ نور الفكرة ، والصواب فرع الرويّة ، والتدبير فرع الهمة .

قال ابن الرومىّ :

نارُ الرويّةِ نارٌ جدّ منضِجةٍ ... والبديهة نارٌ ذاتُ تلويحِ[1]

وقد يفضّلها قـــوم لعاجلها ... لكنّه عاجل يمضى مع الريحِ

وقال أشجع فى جعفر بن يحيى :

يريدُ الملوكُ مدى جعفرٍ ... ولا يصنعون كما يصنعُ[2]

وليس بأوسعِهم فى الغنى ... ولكنّ معروفه أوسَعُ

بداهته مثـــل تفكيره ... متى تلقه فهو مستجقَعُ[3]

وقال فيه :

بديهتُه وفكْرَتُه ســـواء ... إذا التبسَتْ على النَّاسِ الأمُورُ

(١) بدائع البدائه ٦

(٢) من قصيدة له فى الأغانى ١٧ : ٣٧ .

(٣) الأغانى : « بديهته .... متى رمته » .

وقال إبراهيم بن العبّاس الصولىّ فى الفضل بن سهل :

يقضى الأمورَ على بديهته وتريه فكرتَهُ عواقِبُهُ
فيظلّ يُورِدها ويُصدِرها فلَنِعْمَ حاضره وغائبُهُ

ودخل المأمون يوماً بعض دواوينه، فرأى غلاماً جميل الصورة، على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين الناشىء فى دولتك، والمتقلب فى نعمتك ، والمؤمّل بخدمتك ؛ الحسن بن رجاء خادمك . فقال المأمون : أحسنتَ يا غلام ، وبالإحسان فى البديهة تفاضلت العقول. ثم أمر أن تُرفَع مرتبته فى الديوان.

* * *

قوله : «بنزاهته» أى برفعته وبعده من التّهمة بسرقة الشعر . آنس : أبصر . استئناسهم : أُنسهم وتركهم الإنكار . طرفة : نظرة ، قد طَرُف يطرف طَرْفاً ، إذا حرّك جفنيه بعد النظر . دونكم : إغراء ، ومعناه خذوا حذركم واسمعوا . جدّ : تحقّق . البين : الفراق . بنان : أصابع . الحَصِر : المنقطع عن الكلام عِيًّا . ليل : أراد به نقاباً أسود . صبح : وجه . أقلّهما : رفعهما . غصن : قدّ . ضرّست البلّور : الأصابع . الدرر : الأسنان .

[نقد شعر الحريرىّ]

والظاهر من سياق هذين البيتين أنه قصد أن يزيدهم استئناساً بأنه غير مدّع فى الشعر ، ودلّ على هذا ظاهر الكلام قبل البيتين وبعدهما ، وهو قد أفرج معنى زائدا فى البيت ولم يصرح به لما عليه فى ذلك من التقصير عن درجة غيره، وذلك أنه لمّا لم يستوفِ مقابلة بيت أبى الفرج مَرّةً ببيتيه المتقدمين، استوفاها فى هذا البيت الثانى ، لأنه قابل «أمطرت» بساقطت ، واللؤلؤ باللؤلؤ، والنرجس بالخاتم ، وهما العين والفم ، وحمرة الخد بسنا القمر ، وبقى عليه زائد من قول أبى الفرج: «وعضت على العنّاب بالبرد» ، فقابله فى هذا البيت بقوله : «وضرّست

البلور بالدرر ، وجعلها تعضّ على أصابعها وهى بيض ، لانه يصف امرأة شعرت بفراق أحبابها ، فتركت الزينة واستعمال الحِنّاء ،فلمّا حان وقت فراقهم ، لبست ثياب الحزن ، وأقبلت تودّعهم تلهّفاً وتندُّماً على فراقهم ، ووصف الأصابع بالّلين والصبغ ، وذلك مذكور فى العاشرة ، وجعلها لابسة السواد ، لأنّ أهل المشرق يلبسونه لحزنهم ، وأهل الأندلس يلبسون البياض لحزنهم ، قال الشاعر :

ألا يا أهْـلَ أندلسٍ فطنتمْ ... بلطفـكم إلى أمرٍ عجيبِ
لبستمْ فى مآتمكم بياضًا ... وجئتم منه فى زِىّ غريبِ
صدقتم فالبياضُ لباسُ حزنٍ ... ولاحزنٌ أشدّ من المشيبِ

وأنشد أبو عثمان الأشناندانىّ فى أبيات المعانى له :

أرعتْ مراتع مدْراها على عجلٍ ... صنوين إن أفردا لم يرعَيا أبَدَا
واستبدلتْ من رياض الحزن مونقةً ... ثَوْبَ الأمير الذى فى مُلْكِه قَعدَا

عنى بمراتع مدراها شَعْرَها ، وبصنوين مقصًّا حلقتْه به ، وبرياض الحزن ثياباً ملوّنة ، وبثوب الأمير ثوباً أسود ، لأن ملوك بنى العباس لباسهم السواد .

وعارض ابن لبّال[1] الحريرىّ فى أبياته فقال :

ودّعتُها ومـــدامعى ... تنهلّ بالدَّمْع الطَّليقِ
فبكتْ فأذرَتْ أدمعاً ... فى صفحة الخدِّ الأنيقِ
ومضتْ تعضّ بنانَها ... بين التلهّف والشهيقِ
ورأيت مبيضَّ اللّجـ ... ـيْن يَعضّ محمرَّ العقيقِ

وكما عارض بيتَ الحريرى عارض قولَ البحترىّ المتقدم :

---

(١) ابن لبال ، واسمه على ابن أحمد بن على ، من قضاة الأندلس وشعرائها وأدبائها ؛ وله كتاب فى شرح المقامات . المغرب ١ : ٣٠٣

يا بأبى ظبيٌ إذا مارنا أثخن قلبي وفؤادى جراحْ
يفترّ عن طلعٍ وعن جوهرٍ وفضّة أو حَبَبٍ أو أُقاحْ

فزاد عليه بوصفين .

من أقوالهم فى الفراق

ومما يناظر ما تقدّم من البكاء عند الفراق قول محمد بن يوسف :

وكأنّما أثر الدموع بخدّها طلٌّ تساقط فوقَ وَرْدٍ يانِعِ
عَذُبَ الفراقُ لنا قبيلَ وَدَاعِنا ثم اجترعناه كَسُمٍّ ناقِعِ

وقال ابن الرومىّ :

لو كنتَ يومَ الوداع شاهدَنَا وهنَّ يُطفئن غلّة الوجْدِ
لم تَرَ إلّا دموعَ باكيةٍ تسفح من مُقْلةٍ على خَدّ
كأنّ تلك الدموع قطرُ ندًى يقطر من نرجسٍ على وَرْدِ

وقال النّاشى :

بكيتُ الفِراقَ وقد رَاعنِي بكاء الحبيب لبعد الديارْ
كأنَّ الدموع على خَدِّها بقيّة طلٍّ على جُلّنَارْ

وقال أبو نواس :

تقولُ غداة البين إحدى نسائهمْ لِيَ الكبدُ الحرّى فسِرْ وَلكَ الصَّبْرُ(١)
وقد غَلَبَتْها عَبرةٌ فدموعُها على خدِّها جَمْرٌ وفى نحرها صفْرُ

(١) ديوانه ٨ .

يقول: لون خدها أحمر، فتشكلت الدمعة به جمراً، ولون نحرها أصفر عاجيّ كما قال ذوالرمة :

كأنّها فِضّـــةٌ قد مسّها ذهبٌ فصارَ فيها للون الدمع صُفْرَتُهُ

وقيل للعباس بن محمد : ما لونُ الماء ؟ فقال : لون إنائه .

ولمّا ذكر الحريريّ الخلل السود على الجارية ، تذكّرت ما قال أبو عثمان الناجم[1] فى جارية رأى عليها ثوباً أزرق :

ما تعدّت قبولُ حينَ جلتْ زِيًّـــا شبيهاً بوجهها ذِى الضِّيَاءِ
لبست أزرقاً فجاءتْ بوجـــهٍ يشبه البَدْرَ فى أديمِ السَّمَاءِ

ولأبى حفص بن برد فى غلام بدا له فى ثوب لازوردىّ ، فقال :

لمّـا بدا فى لازور دىّ الحرير وقد بَهَرْ[2]
كبَّرت من فرط الجمـا لِ وقلتُ ما هذا بَشَرْ
فأجابنى لا تنـكرنْ ثوبَ السماء على القَمَـرْ

وقال ابن المعتزّ فى غلام عليه ديباج بنفسجىّ :

وبنفسجىّ الثوب قتـ ـل محبّه مِنْ حَالِهِ[3]
الآن صرت البدرَ إذ أُلْبِسْتَ ثوبَ جَمَالِهِ

قوله : «استسنى»، أى استعظم، وقد سَنُوَ الرجل ، وسنا: شرف وعظم. ديمته : كلامه بالشعر وهو دائم غير منقطع ، أو يريد بها فِطْنته التى تمدُّه بما شاء من

(١) هو سعد بن الحسن بن شداد المعروف بالناجم الشاعر الأديب ، صاحب ابن الرومى وراوية شعره . معجم الأدباء ١١ : ١٩ .

(٢) الذخيرة ٢ : ٣٧

(٣) يرد البيتان فى ديوان المطبوع ، وهما فى الذخيرة ٢ : ٣٧ ، مع رواية مخالفة

الشعر، وأصل الديمة المطر الدائم . واستغزروها : استكثروها ووجدوها غزيرة . أجملوا عشرته، أى أحسنوا صحبته وعاشروه بالجميل. جمّلوا قشرته ، أى حسّنوها ، من لفظ الجمال ، أو يكون معناه: جمّلوا من جمّلت الحساب وأجملته ، أى جمعته، فكأنهم جمعوا له شيئاً وكسوه . وقشرته: ثوبه ، لأنه قدّم أنّ هيئته كانت رثّة ، فاحتاجوا أن يكسوه .

* * *

قال المخبرُ بهذه الحكايةِ : فَلَمَّا رَأَيتُ تَلَهُّبَ جَذْوَتِهِ ، وَتَأَلُّقَ جَلْوَتِهِ ، أَمْعَنْتُ النَّظَرَ فِي تَوَسُّمِهِ ، وَسَرَّحْتُ الطَّرْفَ فِي مِيسَمِهِ ، فإِذَا هُوَ شَيْخُنا السَّرُوجِيّ ، وَقَدْ أَقْمَرَ لَيْلُهُ الدَّجُوجِيّ ، فهَنَّأْتُ نَفْسِي بِوُرْدِهِ ، وابتدرتُ اسْتِلامَ يَدِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : ما الَّذِي أَحَالَ صِفَتَكَ، حَتَّى جَهِلْتُ مَعْرِفَتَكَ ، وَأَيُّ شيءٍ شَيَّبَ لِحْيَتَكَ ، حَتَّى أَنْكَرْتُ حِلْيَتَكَ ! فأنشأ يقول :

وَقْعُ الشَّوَائِبِ شَيَّبْ ... وَالدَّهْرُ بالنَّاسِ قُلَّبْ
إِنْ دَانَ يَوْمًا لِشَخْصٍ ... فِي غدٍ يَتَغَلَّبْ
فَلا تَثِقْ بِوَمِيضٍ ... مِنْ بَرْقِهِ فَهْوَ خُلَّبْ
وَاصْبِرْ إِذَا هو أَضْرَى ... بِكَ الْخُطوبَ وَأَلَّبْ
فما عَلَى التِّبْرِ عَارٌ ... فِي النَّارِ حِينَ يُقَلَّبْ

ثم نَهَضَ مُفارقاً مَوْضِعَهُ ، وَمُسْتَصْحِبًا الْقُلُوبَ مَعَهُ .

* * *

تلهّب جذوته : اشتعال جمرته واتقادها ؛ وأراد حدّة ذهنه، والجذوة : النار فى طَرَف العودِ . تألق : لمعان . جَلْوته : ما جلاه وكشفه من وجهه ، وتقول : جلوت العروس جَلْوة، إذا أزلتَ نقابها ، وأظهرت وجهها ، والجِلْوة بالكسر : هيئة جلوّه حين يجلَى ، وأراد بتألّق جلوته بريقَ وجهه . أمعنت : بالغت وأدمْت النظر ، وأصله من أمعن فى الأرض إذا أبعد الذهاب فيها . توسمه : نظر سماته ، وهى علامته التى يُعرف بها ، ويريد أنه أدام النظر فى نعوته . سرّحت الطّرْف : أرسلتُ العين بالنظر ، وأصل الطرف تحرّك العين عند النَّظَر ، تقول : طرفت العين طرفاً . والعين : الجارحة ، والبَصَر : ما تدركه بنظرها، ثمّ سُمّيت العين طرفا لذلك . وميسمه : علامته . أقمر : ابيضّ ، فصار مثل لون القمر . الدّجوجىّ : الشديد السواد ، وأراد نبات شعره الأسود .

قوله: «بموردِه» ؛ أى بقدومه وإتيانه ، تقول : وَرَدَ علينا فلان ، إذا قدم عليك من بلد آخر ، والمورد : مصدر وَرَدَ ، وهو بمعنى الورود ، لأنه قدّم أنه غاب عنه مدّة لا يَعْرف له موضعاً ، ولا يجد عنه مخبراً ؛ حيث قال : « واستتر عَنّى حيناً » ، فلما رآه ببلده بالبصرة فرح بقدومه وهنّأ نفسه على ذلك .

استلام : تقبل اليد . ابن الأنبارىّ : استلم الحجر ، معناه أخذه ومسّه بيده ، واستلم ، افتعل ، من المسالمة . يريد أخذ الحجر وضمّه إليه ، أو يكون استفعل ، من اللأمة وهى السلاح ، يريد أنه حصّن نفسه بمسّ الحجر من العذاب ، لأن السلاح إنما يابس ليُمتنع به ويتحصّن . أحال : غيّر . حلْيتك : صفتك ، ولذلك احتاج أن يمعن النظر لمّا تغيرت صفاته التى كان يعرفه بها من الفتوّة والشبيبة ، فلما رآه قد شاب شعره ، وتغيّرت صفاته لم يعرفه إلاّ بعد طول تأمّل . وقال الحلوانى القيروانىّ :

ولربّ باكيةٍ رأت فى مِلّتى وَخْزَ المشيب تألّقتْ ضَحِكاتُه

قالت : أغصناً قد علاه فلا أرى زهْر الرّياض ونوّرت ورقاتُه
فأجبتها: قارعتُ فى جَنْبِ الهوَى صرف الزّمان،وهذه نكباتُه

ولابن الجدّ :

نَكَرَت نُحُولى وهومن فَرْطالأسَى لفراقِ إخوان علىّ كرامِ
وتعجَّبتْ للشَّيب لا تتعجَّبي هذا غبار وقائع الأيّامِ

قوله : «فأنشأ يقول » أى ابتدأ ، وأنشدوا :

أنشأت تطلب ما تغيّرَ قد تناشبت الأظافرْ

أى ابتدأت تطلب . الشوائب ، أصله ما يقع فى الماء الصافى من الأقذاء فيكدّره ، فأراد أن أنكاد الدهر شيّبته . وقُلّب : كثير التقلّب ، فيحوّل من حال إلى حال . دان : طاع وانقاد . يتقلّب : يتحوّل عن الطاعة . وميض : لمع خفىّ . خُلّب : خدّاع ، لا ماء فيه ، وأراد : لا تثق بالدّهر ، إذا ما كسبت فيه شيئاً من المال فإنه يحوّل عنك ولا يترك لك منه شيئاً . أضرَى : أغرى وألصقها بك ، وأصل «أضرى» من ضراوة الكلب ، تقول ضَرِىَ الكلب بالصيد ؛ إذا تعلّم الصيد ، وأضريته أنا بمعنى عرّضته للصيد . والخطوب : الأمور الشداد . وألّب : حشد ، أى اصبر للشدائد إذا أضراها الدهر بك وحشدها ، فما عليك فى ذلك عيب ، كما أن الذهب يُسبَك بالنار وهو مع ذلك عزيز القدر . والتّبر : الذهب قبل سبكه ، وانظر هذا المعنى عند قوله فى السابعة والأربعين :

وطَالَمَا أُصْلِىَ الياقوت جمرَ غضًى ثم انطفا الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

وزاد الآخر فى المعنى فقال :

إنى أنا الذَّهبُ المُحمَى ومخبرُه يزيد فى السَّبْك للدينارِ دينارا

وأنشدوا :

اصْبرْ على نُوبَ الزَّما ن فهكَذَا مضت الدُّهورْ
فَرَحٌ وحُزْنٌ تارةً لا الحزن دامَ ولا السُّرورْ

obeikandl.com

المقامة الثالثة وهي الدينارية

رَوَى الحارثُ بن هَمَّامٍ قال : نَظَمَنِي وأخدانًا لى نادٍ ، لَمْ يَخِبْ فِيهِ منادٍ ، ولا كبَا قَدْحُ زنادٍ ، وَلاَ ذَكَتْ نارُ عِنادٍ ؛ فَبَيْنَا نَحْنُ نتجاذَبُ أَطْرَافَ الأناشِيدِ ، ونتوارَدُ طُرَفَ الأسانيدِ ، إذ وقف بنا شَخْصٌ عَلَيْهِ سَمَلٌ ، وفِي مِشْيَتِهِ قَزَلٌ .

* * *

نظَمنى ، أى جمعنى . أخدانا ؛ أى أصحابا . نادٍ : مجلس . منادٍ : متكلّم. كبا : شحّ ولم يبد ناراً . قَدْح : ضرب . زناد : حديدة النار ، وزناد العرب من خشب ، وأكثر ما يكون من المرْخ والعَفار ؛ وإنما هو أن يُؤخذ عود قدر شبر ، فيُثقب فى وسطه ثقب لاينفذ ، ويؤخذ عود آخر قدْر ذراع ،فيحدّ طرفه ، ويُجعل ذلك فى الثّقب ، وقد وضعه رجُلٌ بين رجليه، فيُدِيره ويفتلُه ، فيبدى النار ، فالأعلى زَنْد والسفلى زَنْدَة،والزّناد جمع زند . قوله :«ذَكَتْ»،أى اشتعلت . عناد : خلاف ، يريد أنّ هؤلاء الأصحاب لحسن أدبهم ومناظرتهم ليس بينهم خلاف، وهم علماء لايسقط من كلامهم شىء ، وليس فيهم جاهل ، فيكون كلامه قليلَ الإصابة . والأناشيد : ما يتناشدونه من الأشعار بينهم ، كأنّ واحدها أنشودة . وتجاذب أطرافها ،يريد المشاركة فى إنشادها ، أى إذا أنشد أحدُهم شعراً ليُغْرب به شاركوه فى إنشاده لحفظهم الأشعار ، فكأنهم تجاذبوه كما يُتجاذب بأطراف الثوب. والأسانيد الأخبار المسندَة إلى أهلها. وأصل التوارد ، مزاحمة الإبل على شرب المـاء ، فجعل مشاركتهم فى ضبط غرائب الأخبار

كتوارد الإبل على الماء ، والطُّرَف: الغرائب ، والطُّرفة : الشيء العجيب من كل شيء ، الذى لا يوجد له نظير . سَمَل : ثوب خلَق ، وأكثر ما تقول العرب : ثوب أسْمال وأخْلاَق ، فيوصَف بالجمع لأنه قِطَعٌ متفرِّقة . وسَمَل : قايل ، وفى تبذّل اللباس روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم :« إن الله يحب المتبذّل الذى لا يبالى بما لبس» . قَزَل: عرج .

* * *

فقال: يا أخايرَ الذَّخائرِ، وبشائرَ العشائرِ ، عِموا صباحاً ، وَأَنْعِمُوا اصْطِباحاً ، وَانظرُوا إلى مَنْ كَانَ ذا ندىً وَنَدَى ، وَجِدَةٍ وَجَدَا ، وَعَقَارٍ وَقُرَى ، وَمَقَارٍ وَقِرَى ، فَمَا زالَ به قُطُوبُ الْخُطُوبِ، وَحُرُوبُ الكُرُوبِ ، وَشَرَرُ شرِّ الْحُسُودِ ، وانتياب النُّوَبِ السُّودِ ، حتَّى صَفِرَتِ الرَّاحةُ ، وَقَرِعت السَّاحَةُ ، وغارَ المنبعُ ، وَنَبَا الْمَرْبعُ ، وَأَقْوَى الْمَجْمَعُ ، وَأَقَضَّ الْمَضْجَعُ ، وَاسْتَحَالَتِ الْحَالُ ، وَأَعْوَلَ الْعِيالُ ، وَخَلَتِ الْمَرَابِطُ ، وَرَحِمَ الْغَابِطُ ، وَأودَى النَاطِقُ وَالصَّامِتُ ، وَرَثَى لَنَا الحَاسِدُ وَالشَّامِتُ .

* * *

قوله : «يا أخاير الذخائر» ، الأخاير : جمع أخير ، كما يقال : أكبر وأكابر ، والمستعمل خير وشر ، ولا يقال : أخيرَ ولا أشرّ إلا شاذًّا ، وإن كان هو الأصل ، لكنه رفض استعماله وجاء الجمع على الأصل ، لأنه يردّ الشيء إلى أصله وقال رؤبة :

* بلال خيرُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَرِ *

فنطق بالمستعمل لشهرته ، وبأصله وهو قليل ، فإذا تعجّبوا من ذلك قالوا : ما أخيرَ فلاناً ،وما أشرّ فلاناً . والذخائر: جمع ذخيرة؛ وهى الشىء النفيس الغالى يصونه الإنسان ويعتدُّه لزمانه . البشائر . جمع بِشارة ، وقد بشرّت الرجل بشارة إذا أدخلت عليه السرور. والعشائر: جمع عشيرة ، وهى قرابة الرجل من قبيلته، يقول: أنتم أرفع الذخائر ، وخيرها ، وأنتم يستبشر من لقيكم برؤيتكم ، ويتيامن بلقائكم ، ويعلم أنكم تَصِلُونه وتكرمونه ؛ ليستعطفهم بهذا الكلام . عموا صباحا : دعاء لهم بالنّعمة فى الصباح ، أى جعلكم الله تنعمون فى صباحكم . وعِمُوا: أمرٌ من وَعَم يَعِم ، وهى فى معنى نَعِم يَنْعَم. وأنعموا اصطباحا، أى طاب شربكم فى الصَّباح وتنعمتم به، والاصطباح : أن يُصبِحوا وهم يشربون . ندىّ : مجلس اجتماع ، أى هو شريف يُقعدويجتمع عنده. ندى : كرم . جدًى : عطيّة . العَقار : المال الذى لا ينتقل كالنخل والدّور والأرَضين . قرًى : جمع قرية . مقار : جفان يُقرَى فيها الأضياف ، أى يطعمون فيها . والقِرى : طعام الضيف. قطُوب . عبُوس . الخطوب : الشدائد . الحروب : القتال . الكروب : الهموم، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «مما أعلم أنّه لا يقوله مكروب إلاّ فرّج الله عنه ، كلمة أخى يونس : ﴿ فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ ... ﴾ الآية » .

ومن كلام ابن المعتز: الحوادث المحضة مكسبة لحظوظ جزيلة ، وثواب مدخر، وتطهير من ذنب، وتنبيه من غَفْلَة، وتعريف بقدْر النعمة ، ومرور على مقارعة الدهر ، وإذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهبَ الآخرة .

غيره : لولا حوادث الأيام لم يعرف صبر الكرام ، ولا جزع اللئام .

وقال أبو تمّام :

والحادثاتُ وإن أصَابَك بُؤسُها فهو الذى أتْبَاكَ كيفَ نعيمُهَا[1]

الحسود : المتمنّى إهلاك مالك ، وإذا رأى لك خيراً تمنّى إزالته ، يريد أن الحسود اتّبع ماله بالعين حتى أهلكه ، وقلّما يُوجد الذى يرمِى بالعين إلا حسودا. انتياب: نزول وقصود . النُّوَب: النوازل. قوله، «صفرت»، أى خلت من الدراهم الراحة : باطن الكف . قرعت : خلت من المال وصارت قرعاء . والساحة : فناء الدار ، والساحة عند العرب: الرّحبة التى تُحلّق بها البيوت ، وأراد أنّها خلت من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك . غار المنبع : جفّ الماء النابع ، والمنبع: موضع النَّبْع . المربع: المنزل فى الربيع . ونبا : بأهله : وجد نَبْوة ، أى ارتفاعا غير وطىء فلم تمكن الإقامة فيه . أقوى : خلا . المجمع: موضع الاجتماع . أقضّ : خَشُن وصار فيه القَضَض ، وهى الحجارة . والمضجع : موضع رقاده ، وأخذه من قول أبى ذؤيب :

أمْ ما لجنبكَ لا يلائِمُ مَضْجَعاً إلاّ أقضّ عليهِ ذَاكَ المضجعُ[2]

وكنى بهذه الألفاظ عن تغيّر الأحوال وذهاب المال .

وساق الكلام مساق حكايات الأعراب ؛ منها أنّ أعرابياً وقف بقوم، فقال : أشكو إليكم أيُّها الملأ زماناً أناخ علىّ بكلكله بعد نعمة من البال ، وثروة من المال، وغبطة من الحال ، أضْمَانِى جَديداه بذَبل مصائبه، عن قِسِىّ نوائبه ، فما ترك لى راغية أجتدى ضَرْعَها ، ولا ثاغية أرْتَجِى نفعها ، فهل فيكم من معين على صرفه، أو مُعْذٍ على حتفه !

(١) ديوانه ٣١٠

(٢) ديوان الهذليين ٢ .

وقد ذكرنا منها جملة فى الثالثة والثلاثين . وحكى أبو علىّ فى نوادره حكاية عن أبى زيد اللغوىّ على لسان أعرابىّ يشبه كلام الحريرىّ هنا فى سياقه وكثير من الألفاظ ، فيقول : إنّ المنبع الذى كنا نعيش به نحن وأموالنا قد ذهب ، فهلكنا بذهابه . والمربع :وهو موضع الخِصْب، صار نبوة لاينبت شيئاً ، فلم تجد الإبل ما ترعاه فهلكت ، وإذا هلك المال هلك صاحبه ، والمجالس الّتى كنا نجتمع فيها ،هلك أهلها فخَلَت ، ومضجعنا الذى كان موطّأً بالفُرش أقضّ فامتنع من الإضجاع عليه .

قوله : «استحالت ، تغيّرت» . وحالُ الرجلِ : ماهو عليه من خير أو شرّ أو غِنىً أو فقر ، والحال أيضا: المال . أعول : بكى، وعيال الرّجل:من يفتقر إليه فى مؤنته ونفقته ، واحدهم عيّل. المرابط : المواضع التى تربط فيها الخيل وتُحْبَس . الغابط : الذى يتمنّى مثل مالك ولا ينقص منه شىء . أودى : هلك . الناطق : المال من الحيوان مثل الإبل والبقر والغنم ، وكلّ ما يُتملّك من ذى روح ؛ سميت بذلك لأصواتها ، والناطق كل حيوان له صوت . والصامت : الذهب والفضة والمتاع. رثى : بكى. وأشفق الشامت : الذى يُسرّ بمصيبتك ،ومنه تشميت العاطس ، وهو إدخال السرور عليه بالدعاء ، وقد شمت به شماتاً وشماتة ، فهو شامت إذا سرّ ببلاء ينزل به . والحاسد ، هو الحسود .

* * *

[فصل فى الحسد وما قيل فيه]

والحسد أوّل ذنب عُصِىَ الله به فى السماء والأرض ، أما فى السماء فحسد إبليس آدم ، وأما فى الأرض فحسد قابيل هابيل .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى :﴿ربَّنا أَرِنَا اللَّذيْن أضلاَّنا من الجنّ والإنْسِ﴾[1] : إنهما قابيل وإبليس ، فالحسد حمَل إبليس على الكفر ، وحمَل قابيل على قتل أخيه .

وقال علىٌّ رضى الله عنه : لا راحة لحسود ، ولا أخ للمول ، ولا محبّ لِسَيِّىء الخلق.

وقال رجل لخالدبن صفوان : إنى أحبُّك ، قال : وما يمنعُك ، ولستُ لك بجارٍ ولا أخٍ ولا ابن عمٍّ ! يريد أن الحسد موكّل بالأدْنَيْنَ .

الحسن البصرىّ : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسد بنفَسٍ دائم ، وحزن لازم ، وغَيْرة لا تنفد .

معاوية : كلّ الناس أقدر على أن أرضِيَهم إلاّ حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها .

المبرّد: حدثنا الزيادىّ ، قال: يقال :ستة لا تخطئهم الكآبة : فقير حديث عهد بِغِنًى ، ومُكْثِرٌ يخاف على ماله التلف ، والحسود ، والحقود ، وطالب مرتبة فوق قدره ، وخليط أهل الأدب وليس منهم .

قال الأصمعىّ:اجتمع ثلاثة حسّاد ، فقال أحدهم لصاحبه : ما بلغ من حسدك ؟ قال: مااشتهيت أن يُفعل بمسلم خيرٌ قطّ ، فقال الثانى: أنت رجل صالح ، ولكنى مااشتهيت أن يُفعل بى خير قطّ ،فقال الثالث : ما فى الأرض خير منكما ، ولكنى ما اشتهيت أن يَفعل أحد بأحد خيراً قطّ .

قال : وأنشد الشاعر :

كلّ العداوةِ قد تُرْجَى مودَّتُها إلاَّ عداوة مَنْ عاداك مِنْ حَسَدِ

(١) سورة فصلت ٢٩

وقال حبيب :

وإذا أرادَ الله نشر فَضِيـــلةٍ طُوِيتْ أتاحَ لها لسَانَ حَسُودِ[1]
لولا اشتعالُ النّارِ فيما جاورتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال القاضى ابن عمر :

نَهَانِيَ حِلْمِي فمَا أَظْلِمُ وَعَزَّ مَكَانِي فَمَا أُظْلَمُ
ولا بدّ من حاسدٍ قَلْبُهُ بنور مآ ثرِنا مُظلِمُ
رحمت حَسُودى على أنه يعذَّب بى ثم لا يُرْحَمُ
أتانا الحسود ولسنا كما يقول ولكنْ كمَا يعلَمُ

وقال اليمانىّ :

إنِّى لَأَرحم حاسدِىّ لفرْطَ ما ضمَّتْ صدورهمُ من الأوْغَارِ
نَظَرُوا صنيعَ الله بِى فعيونهمْ فى جنَّـــة وقلوبهم فى نارِ
لا ذنب لى قد رُمْتُ كتْمَ فواضِلِى فكأنّما برقعتُهـا بنهَارِ

قوله: «رثى لنا الحاسد والشامت» : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ارْحموا ثلاثاً :غنىّ قوم افتقر ، وعزيز قوم ذلّ ، وفقيهاً يلعب به الجهّال » .

قال الشافعىّ: خمسة مرحومون:عزيز ذل،وغنىّ قلّ ، وحبيب ملّ ، وفصيح كلّ ، وفقيه ضلّ .

وقال الشافعى : ومن حديث واثِلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاتُظهر الشماتة بأخيك ،فيعافيَه الله ويبتليك» ،وأخذه الحريرىّ من قول الآخر :

لم يبقَ إلاّ نَفَسٌ خافتُ ومُقْـلة إنسانها باهِتُ
ومغرم تُوقَدُ أحشاؤه بالنَّار إلا أنه ساكِتُ
رقّ فما فى جسمه مفصلٌ إلاّ وفيهِ سَقَمٌ ثابِتُ

(١) ديوانه ٨٥ .

يرثِي له الشَّامِتُ مِمَّا بِهِ ياوَيْحَ مَنْ يرثِي له الشامِتُ !

* * *

وآل بنا الدَّهْرُ المُوقِعُ ، وَالْفَقْرُ الْمُدْقِعُ ، إلى أَنِ احْتَذَيْنَا الْوَجَى ، وَاغْتَذَيْنَا الشَّجَا ، وَاسْتَبْطَنَّا الْجَوَى ، وَطَوَيْنَا الْأَحْشَاءَ عَلَى الطَّوَى ، وَاكْتَحَلْنَا السُّهَادَ ، وَاسْتَوْطَنَّا الوِهَادَ ، واستوطأنا الْقَتَادَ ، وَتَنَاسَيْنَا الأَقْتَادَ ، وَاسْتَطَبْنَا الْحَيْنَ الْمُجْتَاحَ ، وَاسْتَبْطأنا الْيَوْمَ الْمُتَاحَ ، فَهَلْ مِنْ حُرِّ آسٍ ، أَوْ سَمْحٍ مواسٍ ! فوالذى اسْتَخْرَجَنى مِنْ قَيْلَةَ ، لَقَدْ أَمْسَيْتُ أَخَا غَيْلَةَ ، لا أَمْلِكُ بِيتَ لَيْلَةٍ .

قال الحارث بن هَمَّامٍ : فَأَوَيتُ لِمَفَاقِرِهِ ، وَلَوَيتُ إلى استنباطِ فِقَرِه ، فَأَبْرَزْتُ دِينَاراً ، وَقُلْتُ له اختباراً : إن مَدَحْتَهُ نَظْماً ، فَهُوَ لَكَ حَتْماً ، فانبرى يُنْشِدُ فى الحالِ ، مِنْ غَيْرِ انْتِحَالٍ .

* * *

قوله : « آل بنا » أى رجع بنا ، وقد آل يئيل ويئول ، أى رجع . المُوقع : المُهلك ، من أوقع به ، ويحتمل أن يريد بالموقع الذى يحمله على الوقوع ، ورجل مُوقع إذا اشتكى ألم رجليه . المدقع : الملصَق بالدقعاء ، أى التراب ، أى لم يترك للإنسان شيئاً يبسطه غير التراب . احتذينا : انتعلنا . الوجى : توجّع باطن القدمين من الحفا ، يريد أنه لبس مكان النعال الحفا حتى توجّعت قدماه . الشجى : ما يعرض فى الحلق ، وكنى بهذا عن سوء الحال ، لأن الشجى ليس بغذاء إنما هو مُلْقِمة وتعب . ولكن بالغ فى وصف سوء حاله ، فقال : إنه يَنتعل مالا يُنتعل ، ويغتذى ما ليس.

بغذاء ، أى ليس ثَمَّ انتعال ولا غذاء . استبطنَّا ، أى جعلناه فى بطوننا . الجوَى : فساد الجوف . والأحشاء : مافى الجوف وماحشى به . الطَّوَى : الجوع ، وقد طوِىَ يَطْوَى ؛ لأن الأحشاء إذا امتلأت من الطعام انتشرت ، وإذ فرغت منه انطوى بعضُها على بعض . والسُّهاد : امتناع النوم ، من قول الشاعر :

ما لعينِي كُحِلَتْ بالسُّهَادِ ولجنبى نابِيًا عَنْ وِسَادِى

استوطنَّا : سكنَّا واتخذناه وطناً . الوِهاد : ما انخفض من الأرض . استوطأنا : وجدناه وطيئاً . القتاد : شجر له شوك شديد يسمّى عندنا حِمْض الأمير . الأقتاد : خشب الرِّحال ، يريد أنهم نسوا ركوب المطايا لبعد عهدهم بها ورجعوا الآن يمشون على الشوك فيجدونه وطيئاً . الحَيْن : الموت . المجتاح : من لفظ الجوائح ، يريد به المستأصل للأموال . استبطأنا : وجدناه بطىء المجىء . المتاح . المقدَّر ، يريد أن يوم موتهم تمنّوه لشدة ما قاسوْا ، وأبطأ عليهم . آسٍ : طبيب يطبّ علة الفقر والجمع الأساة . سمح : كريم . والمواسى : المعين . وذكر عاصم فى شرح قوله : « يواسى فى كريهته أخاه » ، أن معناه ، جعله أسوة نفسه ، فمواسٍ من الأسوة ، كأنه يشاركه فى ماله . ويقال : آسيته ، والأصل الهمز .

المفضّل : معنى فلان يواسى فلانا ، يشاركه ، والمواساة المشاركة ، وآساه : شاركه فيما هو فيه .

مؤرِّج : ما يواسيه ، أى ما يصيبه بخيرٍ أصلا .

غيره : معناه يعوّضه ممن مودّته وقرابته شيئاً ، من الأوس وهو العِوَض ، قال الشاعر :

فلأرْمِيَنَّك مِشْقَصًا أَوْسًا أُوَيْسُ من الهَبَالَهْ[1]

(١) اللسان ـ هبل ، ونسبه إلى أسماء بن خارجة ؛ وفيه أن الهبالة اسم ناقة أسماء بن خارجة ، ورواية اللسان : « لأحشأنك » .

والهبالة: اسم ناقة ، أى أرميك بسهم يكون عِوَضًا عن الناقة . وكأنّ أصله يؤاوسه، فقدموا السين وهى لام الفعل، وأخّروا الواو وهى عينه ، فصار «يؤاسوه» فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، فهو من المقلوب ، وإن جعلتَه من أسوتُ الجرح ، إذا أصلحته فلا قَلْب فيه .

قوله: «فوالذى استخرجنى من قيلة» ، قيْلة هى أمّ الأوس والخزرج ، وهى بنت الأرقم الغسّانية ، وانتسابه لها كانتسابه قبل إلى أقيال غسّان . أخا عَيْلة: صاحب فقر ، قال تعالى: ﴿وإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[1] ، أى فقراً ، وقال صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيْلة والمسكنة» . بِيت ليلة : قوت يبيت عليه ليلة .

أويت : أشفقت وحننت . مفاقره : جمع فقر على غير قياس ـ ومثله مذاكير الرجل جمع ذَكَر : محاسنه ومساويه . لوَيت : انعطفت . استنباط : استخراج . الفِقَر فى النثر: فواصلُه ، وهى مثل القوافى فى النظم، والفِقَر: ماتقدّم فى المقامة من الكلام المفقَّر . أبرزت : أظهرت . حتماً : واجباً ، يريد أنه قصد إلى أن يحقّق ما تقدّم من الفصاحة فى فقَره إن كانت له أو انتحلها ، فقال ليختبره : امتدح هذا الدينار بشعر . فانبرى ، أى اعترض وتقدّم . انتحال : ادّعاء منه فى شعر غيره ، يقال: انتحل كذا ، أى ألزمه نفسه ، وجعله كالملك ، من النِّحلة ، وهى الهِبَة والعطية .

* * *

أَكْرِمْ بِهِ أُصْفُرَ رَاقَتْ صُفْرَتُهْ ... جَوَّابَ آفَاقٍ تَرَامَتْ سَفْرَتُهْ

مَأْثُورَةً سُمْعَتُهْ وَشُهْرَتُهْ ... قَدْ أُودِعَتْ سِرَّ الْغِنَى أُسِرَّتُهْ

وَفَارَتَتْ نُجْحَ المساعِى خَطْرَتُهْ ... وَحُبِّبَتْ إِلَى الأَنَامِ غُرَّتُهْ

كَأَنَّما مِنَ الْقُلُوبِ نُقْرَتُهْ ... بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوَتْهُ صُرَّتُهْ

(١) سورة التوبة ٢٨ ،

وَإِنْ تفاَنَتْ أو تَوَانَتْ عِتْرَتُهْ يا حَبَّذَا نُضارُه وَنُقْرَتُهْ
وَحَبَّذا مَغْنـاَتُهُ وَنُصْرَتُهْ كَمْ آمرٍ بهِ اسْتتبَّتْ إِمْرَتُهْ
وَمُتْرَفٍ لَوْلاهُ دَامَتْ حَسْرَتُهْ وَجَيْشِ هَمٍّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهْ
وَبَدْرِ تَمٍّ أَنزلتْـهُ بَدْرتُهْ وَمُسْتَشِيطٍ تَتَلَظَّى جَمْرتُهْ
أَسَرَّ نَجْوَاهُ فَلانَتْ شِرَّتُهْ وَكَمْ أَسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أُسْرَتُهْ
أَنقَذَه حَتَّى صَفَتْ مَسَرَّتُهْ وَحَقٌّ مولًى أَبْدَعَتْهُ فِطْرَتُهْ
* لَوْلاَ التُّقَى لَقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهْ *

* * *

قوله: « اكْرِم به »، معناه ماأكرمه . راقت . أعجبت . جوّاب آفاق : قطّاع بلاد . ترامت سفرته : بَعُدَت غيبته، وسمّى السّفر سفراً ، لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال ، أى يكشفها ويوضّحها ، أخذ من قولهم : سَفَرَت المرأة عن وجهها ، إذا كشفته وأظهرته ، ويقال للمكنسة : مِسْفَرة ،لأنها تُسفِر التراب عن الموضع ، وسفر بيتَه ، كنسه . مأثورة : محدّث بها . سمعته: ذكره المسموع. أودعت : ضُمِّنتْ. أسِرّته : خطوط وجهه ، أراد نقشه ، وأنّ بين أسطاره سرّ الغنى ،فمن ملكه ملك الغنى . قارنت : ساوت : النجح : ضد الخيبة . المساعى : المشى فى طلب الحوائج . الأنام: الخلق. غُرَّتُه : وجهه ؛ قيل لأبى الزناد : مالك تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا !قال : إنها وإن أدنتْنى من الدنيا ، فقد صانتنى عنها . والنّقرة : القطعة المسبوكة من الذهب والفضة ، قبل أن يطبع منها الدراهم والدنانير ، وأراد : كأنما قطعت نقرته من قلوب الناس لشدّة حبهم فيه . والنّقرة ، إنما تستعمل من الفضة ، واستعملها فى الذهب لقرب ما بينهما، وأخذه من قول البحترىّ :

فكلّ قلبٍ إليه منصرفٌ كأنّه من جميعها خُلِقَا (١)

أو من قول ابن الرومىّ :

به أمست الأهواء يجمعها هوًى كأنّ نفوسَ النّاس فى حبّه نَفْسُ

أو من قول المتنبى :

فى خَطِّه من كلِّ قلبٍ شهوةٌ حتّى كأنّ مداده الأهواء (٢)

يصول : يقهر ويغلب ، وصال الشجاع على قِرْنه ، والفحل على إبله ، والحمار على أُتُنه صَوْلاً ، إذا قهر وعلا وصاح بها . الصّرّة : الخرقة تصرُّ فيها الدراهم . حوته : ضمّته ، يريد أنّ مَنْ مَلك الدينار صال به على زمانه . تفانت : هلكت . توانت : أبطأت وضعفت عن نصرته . عِترته : قرابته الأدنون . نضاره : ذهبه . نضرته : حسنه . مغناته : منابه ؛ يقال فلان يغنى مغناتك ، أى ينوب منابك ، ويقوم مقامك ، يريد أنه ينوب عن الإنسان فى المضايق وينصره . استتبّت : تمّت واستقامت ، والمستتبّ : الطريق البين ، قال الشاعر :

* على مستتبّ كالمجرّة تعمل *

إمرته : ولايته . مُترف : منعَّم . حسرته : تفجّعه ، وحزنه . كَرّته : رجعته ، وبدر تمّ : القمر ليلة الكمال ؛ ويريد به شخصاً يشبه البدر فى حسنه ورفعته ، فإذا بعثت فى طلبه الدينار أنزلته عن مرتبته وتملكته ، والبَدْرة : عشرة آلاف درهم . مستشيط : غضبان : تتلظّى : تتلهب . جمرته : شدّة غيظه . أسرّ : أخفى . نجواه : حديثة سراً . شِرّته : حدّته وغضبه ، يقول : كم من غضبان شديد الغيظ ، مثل

(١) فلحق ديوانه ٢٦١٥ .

(٢) ديوانه ١ : ٢٠ ، والأهواء : جمع هوى ، مقصور ، وهو المحبة .

حاكم يَصول بصاحب جناية ويهدّده ، فإذا رُشِيَ بالدينار وبُعث إليه سرًّا أزال غضبه ، وسكنتْ حِدّته . أسلمته ، تركته . أسرته : قومه . مسرّته : فرحه . أبدعته : أو جدته قبل أن يكون. فطرته : خلقته . التقى : الخوف. جلّت : عظمت.

* * *

ثمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، بَعْدَ مَا أَنْشَدَهُ ، وَقالَ : أَنْجَزَ حُرٌّ مَا وَعَدَ ، وَسَحَّ خَالٌ إِذا رَعَدَ. فَنَبَذْتُ الدِّينَارَ إِلَيْهِ ، وقُلْتُ : خُذْهُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ ، فوَضَعَهُ فِي فِيهِ ، وَقال : بَارِكِ اللَّهُمَّ فِيهِ ، ثم شَمَّرَ لِلانْثِنَاءِ ، بَعْدَ تَوْفِيَةِ الثَّنَاءِ .

* * *

[قصة المثل : أنجز حرٌّ ماوعد]

قوله : «أنجز حرٌّ ما وعد» ، هذا مثل ، قاله الحارث آكل المرار ـ وهو جدّ امرئ القيس ـ لصخر بن نهشل بن دارم ؛ وذلك أن الحارث قال : ياصخر ، هل أدلّك على غنيمةٍ على أنّ لى خمسَها؟ قال نعم ، فدلّه على قوم من العرب ، فأغار عليهم صخر بقومه فظفروا وغنموا ، فحملهم صخر على أن يعطوا الحارث الخمس ، فأبوا ؛ وكان طريقهم على شِعْبات ـ وهى ثنيّة متضايقة ـ فلما دنوا منها صار إليهم صخر حتى قعد على رأسها ، ومنعهم الجواز أو يعطوا الحارث الخمس ، فقال حمزة اليربوعىّ : والله لا نعطيه من غنيمتنا شيئاً ؛ ومضى فى الثنيّة ، فحمل عليه صخر فقتله . فلما رأى ذلك الجيش أعطوه الخمس ، ففى ذلك يقول نهشل بن حرّىّ بن منجز ابن نهشل بن دارم :

ونحن منعنا الجيش أن يتأوّبوا على شعباتٍ والجياد بنا تجرى
حبسناهُمُ حتَّى أقرّوا لحكْمِنَا وأدّىَ أنفال الخميس إلى صِخْرِ

فمعنى «أنجزحرٌّ ماوعد»[1] أحضر وهيِّأ. وقد نجز الشيء إذا حضر، ولفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، أراد لينجزْ حُرٌّ ماوعد.

* * *

سحَّ: صبّ وأمطر. خالٌ: سحاب يخيَّل لك أنّ المطر فيه. رَعَد: صوّت؛ يقول لابن همام: إنَّ السحاب إذا سمع الرعد سحَّ بالمطر، وأنت قد أسمعتنى ذكر الدينار، ووعدتَنى به، فأنجزْ لى وعدى.

نبذتُ: رميتُ. مأسوف: محزون. بارِك: أى ضع البركة فيه، وقولهم: تباركَ الله، أى تقدَّس وتطهّر، وقيل: هو «تفاعل» من البركة، أى البركة تنال بذكر اسمك. الانثناء: الرجوع. توفية الثناء: كمال الشكر والمدح.

[مما قيل فى وصف الدينار]

ومِمّا قيل فى وصف الدينار ومدحه:

ومُقَسِّمِ الوجناتِ يبرُق وجهُه ... بادٍ على وجَنَاتِه عَبَّادُ
جُبِل الأنامُ عَلَى محبَّة حسنِه ... فكأنَّه ربّ وهُمْ عُبَّادُ

وفى مقامات البديع فى وصفه.

ياحسنَها فاقعةٌ صفراء ... مشرقة منقوشة قَوْراء[2]
يكادُ أن يقطرَ منها الماء ... قد أثمرتْها همَّة عَلياء
ياذَا الَّذِى بغيته الثَّناء ... ما ينقضِى بقدرِكَ الإطراء

* امض عَلَى الله لك الجزاء *

* * *

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٣٠، فصل المقال ٧٩، الفاخر ٦١.
(٢) مقامات البديع ٩٢، وفيها: «ممشوقة» بدل «مشرقة».